

منازل الأوطان

نجاهة عبد الصمد

منازل الأوطان

سلسلة شهادات سورية -25- منازل الأوطان
نجاهة عبد الصمد

لوحة الغلاف: سليمان أبو سعدة
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى 2018

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا
الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو،
أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير،
أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

التوزيع:

أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت لبنان
هاتف: +961 1 750054
فاكس: +961 1 750053
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الناشر:

بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق الجمهورية العربية السورية
هاتف: +961 78840213
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء الناشر.

المحتويات

1. منازل الأوطان 9

من الذاكرة القريبة قبل الحرب

2. متى تُصدّق هذه الأوطان أنّنا نحبّها؟ 17

3. قصصٌ من حياة الجنود السوريين في لبنان 21

4. أحداث البدو، أيام السويداء الدامية عام 2000 27

بعض يومياتنا خلال الحرب

5. أنت حيٌّ إذًا! 35

6. في عيادة الطبيب 37

7. حين انكسرتُ يدي 41

8. أنا السوريّ في لبنان 48

9. حدث في دارفور 51

10. صورة الرجل الأفغاني 54

11. «أذر نفيسي» تكتب من إيران أشياء كانت ساكنةً عنها... 57

12. إلى رائد وحش 65

13. في بيتي رجال 71

14. قلمٌ أزرق 75

15. هامش للحياة في ملعب النار 77
16. جيلٌ جديدٌ يكبر في دمشق 82
17. يكذبان 89
18. هل يفارق الطيب مهنته مختاراً؟ 93

السويداء بقعة سورية متروكة للريح

19. عن السلاح 99
20. عن واقع السويداء أو اسط عام 2014 104
21. عن مقتل الشيخ البلعوس 123
22. أمكنة تحرس الحياة 128

خاتمة

23. ستكون سورياً أو ستصمت 137

الإهداء:
إلى أسامة...

نُشر قسمٌ من هذه النصوص بين منتصف عام 2014 ونهاية عام 2016، في الملحق الثقافيِّ لصحيفة «النهار» اللبنانية، وفي مدوّنة دحنون السوريّة التشاركيّة، وفي مركز المسبار للدراسات والنشر، وبعضها ينشر هنا للمرة الأولى.

1. منازل الأوطان

«الصباح جميلٌ حتى في منازل الشيطان...».

ترنّ العبارة في رأسي منذ صحت. يرنّ هاتفي، أحدُ معارفي يدير جمعيةً وطنية الهوى، يسألني عن أسماء سوريين تنوي الجمعية أن تفاجئهم بتكريم. يقول: سوريين، نظيفي الكفّ، إنسانيين في سنوات الكارثة السورية، أغاثوا أو علّموا أو كفّلوا...

طافت في ذهني أسماء كثيرة اشتغلتُ بدأب النمل وصبر الأمهات وسريّة الخطايا، دوّنتُ على الورقة اثني عشر اسماً، وصلّيتُ في سرّي ألا أكون نسيت أحداً، وداخلني فرحٌ أن الدنيا لا تزال بخير.

...

بحث أعضاء الجمعية عن عناوين هذه الأسماء واحداً واحداً، لم يعثروا على أحد... كلهم صاروا خارج البلاد أو خارج الحياة... اثنان منهما ماتا بسكتة قلبية من فائض الرفاه في السجن.

وداعاً يا منازل الأوطان!

يهاجرون فرادى وجماعات، لأسباب مقنعة أو غامضة، لا تصدّقوا

الأسباب المعلنة... علاء (16 سنة، حادي عشر علمي)، متفوق، وضع أوراقه الثبوتية في كيس نايلون، ومعها رزمة دولاراتٍ استدانها أبوه لأجور الطريق والسمسار، وحمل على ظهره جعبَةً فيها بدل ثياب وبيجاما، وانطلق على طريق اللجوء خفيفاً حتى من الخوف. كان خوفه الوحيد أن يقفلوا أبواب اللجوء قبل أن ينال البكالوريا فيعلق في خنقة البلد. خالد سافر في الرحلة ذاتها في (البلم) الرخو، في دكنة الغابات، في المفازات المعتمة، في ذلّ البرد وجلافة حراس الحدود، قال إنّه يحتملها كلّها، لكنّه لا يحتمل أن يواجه إهمال أبيه له وإهاناته اليومية. في الرحلة ذاتها الأخوان قصي وسارة، سارة المصدومة من فصلها من الجامعة ومن انغلاق الأفق، لم تكن لتجرؤ على اللجوء وحدها. وما كانت لتسافر لو لم يفسخ أخوها قصي خطوبته لأن أهل خطيبته أوغاد، ولأنها مطموسة الشخصية، ولأن رئيسه في الشغل أيضاً وغدّ يهدده كل يوم بتسليمه للأمن إن لم يتلع لسانه الطويل. نساءً خمس، فدايات مغامرات، هاجرن من الضجر. وحدهنّ هاجرن على وعد أن يبعثن لأزواجهن بأوراق (لمّ الشمل).

يهاجرون... ليس في رؤوسهم جوابٌ حاسمٌ عن سؤال: لماذا يهاجرون؟ يغزلون فرصة أن تفتح دولةٌ أرضها الباردة للفارين من أراضٍ ملتهبة... لا تقصف الطائرات فوق رؤوسهم لكنّ رؤوسهم ثقيلة بدويّ الخوف والفقر ويتم الأوطان، ربما يكسرون حاجزاً أخيراً يفصل بينهم وبين هذا الموت البطيء، ربما دُوارٌ ضياع لا قرار له، ربما السباحة في هيولى مخادعة... نداءاتٌ غامضة يستشعرونها ولا يعرفون كيف يصوغونها بالكلمات.

على طريق قنوات، امرأةٌ تسأل المراهق الماشي على الطريق:

- لو سمحت، دلّني على مكتب «كفيلي»!

لا يرتبك الفتى، يبدو خبيراً بمكتب «كفيلي»، كأنّ كفيلي ربيّ في
حضن هذا البلد. نُطقُ الفتى سلسٌ كأنه رضع موسيقا الكلام الأجنبيّ
مع حليب أمه.

- من هنا، البرج الثالث على اليسار، فوق بوتيك «ماسوتّي»،
الطابق الثاني، بجانب مقهى «سي لا فيي».

(مكتب كفيلي صانع المعجزات... ادفع له مالاً خرافياً واطلب منه
أن ينقلك إلى أية جنّة خارج هذه الأرض التعيسة، كفيلي يذلّ بوابات
الحدود... يؤمّن للزبون في مطار بيروت أو إسطنبول أو طهران من
يستقبله ويقوده إلى فندق وإلى السفارة الألمانية في العاصمتين، ويملاً
له طلباته باللغة الأجنبية المطلوبة، ويمنحه موعداً في إحدى السفارات
الأوروبية لتأمينه بدراسة أو عمل أو لمّ شمل، وقد يغنيّ له ههديدة
ما قبل النوم لأنه في كل الأحوال سيصحو باكياً؛ سيبيكي إن أخذوه
مهاجراً، وسيبيكي إن ظلّ يراوح دائخاً في تربته الكاوية...).

كفيلي على طريق قنوات، حوله: (كازوتشي)، (سكارليت)،
(مورغان)، صبايا، (ماسوتّي)، (سي لا فيي)، (تشارلي شابلن)،
(ستايلش)... حوله سياجٌ من الأبراج الصاعدة كالخوازيق إلى كبد
السماء.

«في البحث عن منازل الأوطان...»

أبراجٌ على مدّ النظر، لا قرابة بين أرواحها، لا في الارتفاع ولا في
الديكور ولا في البعد عن حرم الشارع، أبراج وسع المدى، كل برجٍ

أضيق من مرقد عنزة، تندلق أوعاؤها على عرض الطريق: مخلفات البناء، أكوام الرمل، لافتات مرفوعة كصواري أسطول بحري محارب: ملك فلان، تصميم المهندس فلان، إشراف فلان.. تنفيذ... من أين أتت أموالها؟! وكم سعر المتر المربع لمن يريد شراء مرقد عنزة فيها؟! ربما تباع بالسنتيمتر، أو لمشتريين من خارج كوكتنا المحلية الفقيرة... من يملك مثلاً مبلغ عشرين ألف دولار ثمناً لـ 40 متراً (على العظم)، تصلح مكتباً هندسياً لمهندس لن يصل راتبه الحكومي إلى سبعين دولاراً في الشهر... أم هل ستكون كلها مقاهي وصالات لأفراحنا اليومية؟!

الشارع مزروعٌ بعشرات المقاهي الجديدة... يُعلن افتتاحها بحفلاتٍ ليها احتفاءً بانتهاء الحرب... بوكيات ورودٍ بديعة التنسيق هجينة الألوان.. ديكورات أجمل من المعابد الوثنية، ألوان وأضواء لا تنطفئ بانقطاع الكهرباء، مقاهٍ بصالةٍ خارجية بريئة لتقديم الزهورات أو القهوة أو النرجيلة مع مشروب البولو للصبايا (المودرن)، وصالٍ داخلية تمتد في العتمة وتنحدر إلى الأسفل أو تلتوي كخرطوم الفيل إلى صالاتٍ جانبية تنفع لأشياء أخرى... سيجارة حشيش أو حبوب مخدرة... أو لقاءات غرامٍ مؤقتٍ ومأجور... صبايا صغيرات يسدّدن من جلودهنّ اللدنة ثمن وحدات (الموبايل) وثمان (التاتو) وصبغات الشعر، وأهلٌ ربما لا يعرفون، وربما يعرفون ويغضّون البصر ما دامت هذي المصاريف المستحيلة أوسع من جيوب الأهل.

الساحة الرئيسة فقدت رشدها... غصبت أن تصير سوقاً، مخيم بسطاتٍ تتغطى بشوادر من أعطيات (اليونسيف)، لا تعثر على لغةٍ

مَشْرَكَةٌ بَيْنَهَا، أَوْ هَوِيَّةٌ تَجْمَعُهَا، أَوْ وَظِيفَةٌ مَحْدَدَةٌ كَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، أَوْ أَنْ تَحْمِلَ طَابِعَ سَوْقٍ شَعْبِيَّةٍ تَرَاثِيَّةٍ حَمِيمَةٍ. لَا يَتَعَرَّفُ ابْنُ الْمَدِينَةِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْفُونَ خَلْفَهَا بَعِيونَ زَائِعَةً، لَا يَنْشَغَلُونَ بِجَذْبِ الزِّيَّاتِ بِقَدْرِ مَا يَحْدَقُونَ فِي تَعَابِيرِ وَجُوهِ الْعَابِرِينَ الْمُنْهَكِينَ... تَخَالُ لَوْهَلَةَ أَنْ رِعَاةَ الْبَسَطَاتِ فَنَانُونَ سُورِيَالِيُونَ يَنْتَمُونَ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ وَجَاؤُوا إِلَى هُنَا لِيَفْتَشُوا بَيْنَ الْوَجُوهِ عَنْ مَوْدِيلٍ لِلرَّسْمِ أَوْ التَّحْنِيطِ.

تَخْتَرِقُ السَّاحَةَ سِيَارَاتُ (رِينَج) مَفِيَّمةً، مَسْرَعَةً بِلَا احْتِسَابٍ، لَا يَعْنِيهَا ضَيْقُ الْمَكَانِ، كَأَنَّهَا غَادِيَّةٌ إِلَى حَرْبٍ مَبَاغِتَةٍ... سِيَارَاتُ بَنْمَرٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ أَوْ بِلَا نَمْرَةٍ... مَسْرَعَةٌ وَوَائِقَةٌ أَنْ أَيُّ صَدَامٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سِيَارَةٍ أُخْرَى أَوْ مَعَ عَابِرٍ رَاجِلٍ لَنْ يَتَضَرَّرَ مِنْهُ سِوَى هَذَا الْأَخِيرِ، لِمَاذَا إِذَا عَلَيْهَا أَنْ تَحْتَسِبَ؟!

صباح الخير يا منازل الأوطان!

تَصْحُو مِنْ حَلْمٍ مَغْبِشٍ عَنْ سُودَاءِ قَدِيمَةٍ، مَدِينَةٍ - ضَيْعَةٍ... يَنْبَاعِ صَغِيرَةٍ تَنْبِتُ قَرْبَهَا بَضْعَةَ بِيوتٍ يَصِيرُ اسْمُهَا قَرَى، تَرْبَةُ عَقِيقٍ، مَنْجَمٍ قَمَحٍ وَشَعِيرٍ وَقَطَانِيٍّ وَمَوَاسِمِ (الصَّحْرَةِ) الصَّيْفِيَّةِ، حَبَقٌ وَعَطْرَةٌ تَسْكُنُ الْبِيوتِ أَسْوَةً بِالْبَشْرِ، أَطْنَانٌ مِنَ الْأَكْسَجِينِ الصَّرْفِ تَبْعَثُ فِي رَأْسِ الْغُرْبَاءِ عَنِ الْمَكَانِ دُوخَةً مَتَعَبَةً، مَسَاكِبُ الْبَصْلِ وَالنَّعْنَعِ فِي كُلِّ بَيْتٍ، مَرْوُجُ الْبَابُونَجِ وَالْفَرْفَحِينِ الْبَرِيِّ، سِيَاجُ الْبِيوتِ كُرُومِ عَنَبٍ وَتِينٍ وَلَوْزٍ وَتَفَاحٍ... مَطْحَنَةٌ لِلْقَمَحِ وَالْكَشْكِ وَجَرَشُ الْبِرْغَلِ، مَعْصَرَةٌ الدَّبْسِ، مَعْصَرَةُ الزَّيْتُونِ، شَرِاشِفٌ مَهْفَهْفَةٌ النِّظَافَةِ يَنَامُ فَوْقَهَا زَيْبٌ أَشْقَرٌ بَطْعَمِ الشَّمْسِ وَأَيَادِي الْقَاطِطَاتِ، رُفُوفٌ سَنُونُو تَغَادِرُ كُلَّ خَرِيفٍ، وَكُلُّ رَبِيعٍ تَعُودُ... بِيَاطُسٌ يَنْبِيذٌ يَتَخَمَّرُ فِي مَلَا حَقِّ سَرِيَّةٍ فِي الْبِيوتِ، بَيْتِ الْمَيْتِ

في وسط البلدة عمّرتّه تبرعات أبنائها المغتربين، مجلس القرية تؤنسه
عمامات الرجال ومناديل النسوة الخالصة البياض، حلقات الذكر
في مجالس الدين ليلة الخميس، وحلقات لعب الشدّة كل ليلة في
المضافات، واحتفال بولادة الأطفال وطهور الصبيان وزفاف البنات...
وأعراس وحلقات دبكة، أغانٍ، أهازيج عن رجالات الثورة السورية
الكبرى، هؤلاء ماتوا وأخذوا معهم معاني الكلمات وتركوا لنا صدى
الألحان أعجفَ خاويًا.

5 شباط 2016

من الذاكرة القرية قبل الحرب

2. متى تُصدّق هذه الأوطان أننا نحبها؟

هل نحن نكّارون، أم أوطاننا ساديّة، أم أن أوطاننا والآلهة السادية،
والعالم المتمدّن، كلهم يسرفون في اختبارنا؟!

«سمران»، يرنّ اسمه في البال كموسيقا شجيّة.

سمران عراقيّ، أودع بعض أحبابه تحت ثرى بغداد، وفرّ بالناجين
عبر الدرب الصحراوي من العراق «أرض السواد» إلى عمّان، إلى بيتٍ
متهتكٍ على أطرافها، وصار يمشي مرتين في الأسبوع إلى شغله قرب
دوار الحسين.

طريقه طويل، يبّدّ الوقت بقطفِ ضمّة زهورٍ بريّة في الربيع، أو
بجمع أغصانٍ تجفّفت وحدها على مهلٍ تحت شمس الصيف، يهديها
إلى «حميدة». يبشّ وجه حميدة لوروده، وتطمئنّه أن أوجاعها اليوم أقلّ.

ينظف بيتها بحرصٍ صبيّةٍ قد يزورها حبيب، وبهوس امرأةٍ تخشى
نميمة الجارات عن فضائل النظافة، يطبخ لها، يشتري طلباتها من
(السوبرماركت)، يرتّب أدويتها قرب سريرها كما أوصاه طبييها:
حبوب الصباح للضغط والسكر، وحبوب المساء لتسهيل عمل الكلية
الوحيدة.

ثم، بلياقة الأرسقراطيين، يعود سمران إلى مسكنه في العشوائيات وفي جيبه بضعة دنانير.

صادفتُ سمران مرتين في بيت صديقتي حميدة، وسمعتها تناديه ربما خمسين مرّة، وفي كل مرّة كان وقع اسمه يعيد إلى البال أغنية من روسيا القديمة.

وللدول أمراضٌ كما أمراض البشر، روسيا مريضةٌ في توقها إلى أبهة الغرب العجوز والسئم، ومريضةٌ في حنينها إلى الشرق المثير، الشرق الحالم، وعاشقةٌ لحكايات ألف ليلةٍ وليلة، تعيد إنتاجها في أفلام غنائيةٍ للأطفال باللغة الروسية والألحان الغربية، يعتلي الشاطر حسن بساط الرياح، يطير فوق قباب بغداد، فوق رافديها ونخيلها، ويعني:

«ف باعدادي فسبو سبو كوينو سبو كوينو سبو كوينو...»

تقول الأغنية الروسية: (في بغداد كل شيء هادئ، في بغداد سكون، سكون، سكون...)

لماذا إذاً يجحد سمران بسكون بغداد؟!

تكذب الأغنية. كانت بغداد تحترق.

وكنتُ أزور عمان، وكانت عمّان ساكنة، وقالت لي حميدة بعد خروج سمران: «الله يحميه هالرجال. يفكّر بعقل حكيم، ويعمل بقوة حصان، وقلبه رقيقٌ كسنونو».

أضافتُ حميدة بعد صفة: «سمران يحمل شهادة دكتور في علوم الفيزياء»!

وبعد صفتين: «لكن العراقيين لم يكونوا يوماً أوفياء لوطنهم، ربما كان عليه أن يبقى هناك، كان على العراقيين أن يعقلوا ويبقوا هناك».

(حميدة ليست أردنيةً تماماً، هي فلسطينيةٌ وهبتُ للجهة الشعبية

لتحرير فلسطين عمرها وإحدى كليتيها، ونالت جواز سفر أردنياً وبيتاً متواضعاً تتكفل الجبهة بإيجاره).

«مارلين» من لبنان، كنا صديقتين في المغرب كما حقاً (سوا ربينا)، وكان لهب الحرب الأهلية في لبنان يشهب دمعاً في عيني مارلين وخلف ضلوعها. كانت تكتئب أول كل صيف، حين يثقل شوقها إلى قضاء الإجازة السنوية قرب بحر بيروت، ومطار بيروت مغلقاً أو الطريق إليه مزروعٌ بحواجز الطوائف العدوّة؛ ولا وصول إليهم إلا عبر مطار دمشق، سيبالغ الحراس في إذلالها قبل ختم جواز سفرها بتحيّة لا تُهضم ولا تُنسى: «حلّوا عنا عجقتولنا المطار!». مارلين كانت تقول لي: ليس الغضب ما أشعر به، إنه الهوان! لماذا نحن بالذات؟ هذا مطار عبورٍ لكل الناس، أم يظنون أننا لا ندفع سعر تذكرة الطائرة؟». مارلين وأهلها كانوا يسعون كل صيفٍ للقاء في بلدٍ ثالث، وترفضهم معظم البلاد لأن جميع اللبنانيين في تلك الأيام السود كانوا (إرهابيين) يخدشون حياء العالم المتمدن.

كتبوا كثيراً عن جيل اللجوء الفلسطينيّ الأول، قالوا: «باعوا أرضهم لليهود». قالوا: «لماذا لم يصمدوا في أرضهم؟». وقالوا بعد نكسة حزيران: «الآن سيقعدون على قلوب الناس في بيروت وفي عمّان وفي دمشق». وروّج بعض رجال الدين في سائر بلاد الشام: «الفلسطينيون بلا ناموس، يقترفون الكفر بيسرٍ مثل قول: صباح الخير، ألا ترون كيف يعاقبهم الرحمن بالشتات؟!». والآن يلحق بهم الجيلان الثاني والثالث من فلسطيني سوريا،

فبعد أن اجترعوا منغصاتهم الأليمة على مضض، وظنوا أنفسهم نفذوا من مرض اللجوء الأول وصاروا في عداد النسيج السوري، يفرّون الآن في نزوحهم الثاني من سوريا، وتعاودهم أعراض اللجوء، تماماً مثل الذين (خلفوهم) بعد 1948 و1967 في بؤس المخيمات على ضفاف المدن.

مرّةً كتبتُ على صفحتي:

يا بلاد الله السعيدة والعامرة؛ لو تعرفين ما أجمل سوريا!

لحظةً، وكتب لي سمران: وأجملُ منها العراق!

وكتبت بيسان: منفاي أخضر حتى التخمة، وأجوع شوقاً إلى

البرتقال!

وكتبت لي مارلين من حديقةٍ على ضفاف السين: لبنان يا قطعة

سما!

.....

متى ستصدّق هذي الأوطان أننا نحبها؟

24 تشرين الأول 2015

3. قصص من حياة الجنود السوريين في لبنان

كان باص المبيت كثير الأعطال، كحياتهم المعطّلة، فلم يعودوا يتأفّفون من السفر بسيارة (الزبل) من بيروت إلى حيّ التضامن في دمشق، ومن هناك عليهم أن يتدبروا أنفسهم، على نفقتهم الخاصة، بإكمال أسفارهم إلى بيوتهم الموزّعة في المدن والأرياف السورية، التي قد تبعد مئات الكيلومترات عن المحطة الأخيرة لسيارة (الزبل).

سفر طويلٌ وشاقٌّ ومتعثر، لكنه يستحقّ المغامرة. ففي بيوتهم سيمكنهم معانقة الزوجة والأولاد، والاستحمام الشهيّ في حمّامٍ نظاميّ، لا تحت نبريش الصهريج، وغسل ثيابهم بالصابون لا بالماء وحده، وسيتزوّد بعضهم بـ (الخرجية) من أهله قبل أن يعود إلى بيروت. جماعة (الخرجيّة) هؤلاء لم يعودوا أطفالاً منذ زمنٍ بعيد... منهم المهندس والمحامي والطبيب، ومنهم الغرّ الذي لم يغادر قريته قبل هذا الأسفار الدوريّة الحزينة ذهاباً وعودةً إلى حيث تودّي الأفواج السوريّة في لبنان خدمتها الإلزامية.

في بيروت، حيث يقيمون في البناية المهجورة، والمخردقة برصاص الحرب الأهلية، والتي سُرق منها كل شيءٍ حتى أبوابها وشبايكها. منحتهم القيادة أسرّة عسكرية تنعق مفضلاتها كالغربان. زيتوها فحفت

النعيق. واستجرت القيادة لهم وصلة كهرباء من البناية المجاورة، فصار عندهم لمبة تنير لهم عتمة البناية الخاوية. ألقوا النايلون على الشبايك، وفرشوا الشوارد المدعوكة على الأرض، وبمعونة بابور الكاز صاروا يحضرون الشاي ويقلون البيض ويسلقون البطاطا. لا حيل لهم على طبخ اللحم الذي يأتيهم مرتين في الأسبوع. يحمله أحدهم إلى أقرب مطعم، ويعود بنصف وزنه كباباً، لأن نصف وزنه كان أصلاً غير قابل للطبخ.

بيروت، الدافئة، اختبرتهم أحياناً بقرصات برد. لم يستسلموا. ابتكروا الوشيعه من لفّ سلك معدنيّ حلزونيّ حول البلوكة، ووصلوه إلى خط الكهرباء. مدّوا حوله أيديهم الراجفة، فتقاربت وداخلها الدفء وسعادة كثيرة.

أفواجهم مستعمرات صغيرة متشرة على امتداد لبنان.

«سمير»، العامل في الجيش، توقف ترفيعه عند رتبة مساعد أول، منحته سنوات الخدمة الكثيرة في الجيش خبرةً رفيعة. علّمه فور تطوّعه مهنة الميكانيكيّ، ثم ألحقوه بقوات الردع العربية في لبنان عام 1978. جاع في السنة الأولى ثم تعلّم مهنة لكسب الوقت والمال. اقتنى عربة لبيع عرانيس الذرة، يسلقها على بابور الكاز، ويبيعها على كورنيش البحر في المساء، ويجمع الغلّة فوق راتبه العسكري، لعلّه يستطيع تعليم أولاده.

«خلف» لم يتقن عملاً سوى الحراسة على حاجز مدخل الفوج. ولأنّ الإجازات مدفوعة الأجر، فقد كفّ عن التفكير فيها، وكفّ عن الحلم باستحمام دافئ. كان في مناوبته حين مرّت سيارة يقودها مجنّد وبجانبه رجلٌ سمينٌ يلبس بذلة رياضية. أوقف خلف السيارة وطلب علبه دخان. سكت الرياضي، وحين صار في مكتبه بعث يستحضر

الحارس المناوب. صاح به: «ولا حيوان ما بتعرفني مين أنا حتى تطلب مني دخان؟»... «بلى سيدي، أنت العميد فلان، وأنا مشتاقٌ لتدخين سيجارة، وجيبي فارغ، فأنا لم أزر أهلي منذ 3 شهور. سيادتك لن ترضى لهيبة الجيش العربيِّ السوريِّ أن نشحذ الدخان من اللبنانيين...».

(للأمانة يقال إن العميد أشفق عليه يومذاك بكروز دخان وإجازة غير مدفوعة. ولم تنكسر ميزانية العميد الذي ينام على عشرات الكراتين من كروزات (المارلبورو)، يتقاضاها لقاء تسيير أعمال اللبنانيين الحريصين على رضا الجيش السوريِّ لتأمين خط سيرٍ عسكريٍّ مثلاً، أو مشاريع تجارية غير نظامية، يعقد خلالها قران النفوذ على المال، فيهون كل أمرٍ عسير).

في إحدى سفرات سيارة الزيل، في كانون، يجلس ضابطان برتبٍ عالية بجانب السائق، ويسافر ذوو الرتب الأدنى والمجنّدون واقفين في صندوقها. منح أحد المجنّدين حقييته للملازم ليجلس عليها. لم يكن المجنّد يرتدي سوى بذلته العسكرية الرقيقة. خلال الطريق استوطنه البرد كاحتلال، ولم يجروء أن يطلب من الملازم أن ينهض عن حقييته ليسحب منها كنزة الصوف. انتظر حتى توقفت السيارة على الحدود للتفتيش، ووقف الملازم ليحرك ساقه الخدرتين من الجلوس الإجباري، فتحرّرت الحقيية، وخطف منها المجنّد كنزته العزيزة، ولفّها بعنفٍ حول جذعه ليتنقم من برد ذلك الفجر الجليديِّ الناخر للعظم، في منطقة المصنع.

أما الطبيب الملازم المجنّد فلم يكن رفاهه دائماً. كان يستحي من فراغ جيبه أمام مرؤوسيه، فلا يتناول طعامه معهم. لا يريد هم أن يروه يغمّس ستة أرغفةٍ متتالية بعلبة سردينٍ واحدةٍ ليشبع، حيث لا غذاء آخر، ولا (دوسير)، ولا ملينٍ للغذاء الناشف سوى الشاي أو الماء.

«رزق الله»، المجدد الوسيم في قسم الإشارة اهتدى إلى كسب شايه وسكره من مغازلة الخادمة السيريلانكية في شقة في البناية المقابلة. مكتبه قرب السطح يواجه شبك الحمام في شقة الخادمة. تصبر الخادمة حتى يخرج مخدوموها إلى أعمالهم بعد أن يقفلوا عليها الباب، تركض إلى ذاك الشباك، حيث النسيم الحنون يشر حينها وحين المجدد إلى أهليهما، فيطفئانه بالجنس الإيحائي، يده حيث سحب بنطاله العسكري، ويدها تتلقفان أعطياته بحركات أشبه برقصة الدراويش سحباً وسكباً. ولشدة ارتوائها تحار كيف تشكره على أدائه العالي. تروح إلى مطبخ سيدتها، وتعود إلى الشباك بكيسين صغيرين من السكر والشاي، (صغيرين بحيث لا تفتقد سيدتها ما نقص من مؤونة بيتها)، تديهما معلقين بخيط إلى أرض بنايتها، وينزل هو إلى هناك ليقبل آثار يديها على الكيسين طوال طريق عودته إلى مكتبه.

«أبو تحسين»، المساعد من ريف اللاذقية، أمين صيدلية الفوج، يذكره الشباب كيف كان ينتظر إجازته بفارغ الصبر، ليسافر حاملاً إلى أولاده الثمانية في كل إجازة صحنين من البيض، يشحذهما من العميد قائد الفوج، لقاء شريحتين من (حبوب الالتهاب)، يعطيه إياهما بتخريج نظامي، لأن العميد المسكين دائم الخوف من التهاب مفاجئ في لوزاته. (وعند العميد بالطبع مستودع كامل من البيض، ومن كل ما يخطر ولا يخطر على بال).

«أحمد» المجدد كان يغازل بارودته الروسية في أثناء تنظيفها، ثارت البارودة كعروس عاتبة على الهجران والنكران، واخرقت إحدى طلقاتها صدره. حمله الطبيب المجدد ورفاقه الكثر في سيارة الزيل نفسها إلى مشفى الجامعة الأمريكية التي كان عليها أن ترضخ لأمر القيادة السورية باستقبال أي مصاب من الجنود السوريين. شقت

سيارة الزيل صفوف السيارات المزدحمة، تنحى من أمامها باقي السائقين. وكعروسٍ دخلت الزيل بالزمامير إلى حرم المشفى، وما كان للطاقم الطبي إلا أن يقابلهم بنظرات احتقارٍ على المشهد المدوّي، وأن يسعف الجنديّ بداعي الواجب المفروض. لكنه كان نرف إلى أن مات ويده على زناه الذي لم يكن تحرّش به إلا وقت التنظيف.

كان على الجنود أن يسافروا لإنجاز مشروع التدريب كل بضعة شهور إلى بعلبك. كلما سافروا مرّةً أمل أهل الحيّ أن يكون رحيلهم إلى الأبد، وودّعتهم نساء الحيّ بزغاريد الشماتة والهتاف: الله لا يردّكم! درب يسدّ ما يردّ!

لم تكن لديهم أشغال كثيرة. فبعد المواجهات الأولى مع الفلسطينيين أول دخولهم لبنان، ثم المواجهات مع حزب الكتائب اللبنانية، صمت رصاصهم. وبعد إبرام اتفاق الطائف وتوقف الحرب خرست جميع أصوات الرصاص. لكنّ السوريين لم يغادروا لبنان. وإن كان ضباطهم اغتنوا وانتفشوا وتشوّفوا على أهلهم وعلى اللبنانيين، إلا أنّ مجنّديهم ظلوا مرّيين ومهجورين هناك في لبنان كمسماز جحا.

أوحوا لأنفسهم أنهم سعداء. فهم في لبنان الأخضر الذي غادرته الحرب. يكشّون الذباب، يتنزهون بين طابقٍ وطابقٍ في البناية المهجورة. وإن جرّبوا السير في شوارع بيروت باللباس العسكريّ، سيواجهون الكره، والخوف منهم في عيون اللبنانيين، ولن يسخو أحدهم على نفسه بقميصٍ جديد ليلبسه ويغري به فتاةً ما حتى وإن كانت عاترة الجمال.

كان عليهم أن يشغلوا أنفسهم بما يسليها. أكثر من عشرين عاماً قضوها في لعب الطرنيب، وتكديس البطاطا والليمون الحامض

والمرتديلا والكاسات وفناجين الشاي حتى وقت الإجازة، لتهريبها
عبر الحدود وبيعها في سوريا.
نعم، هكذا قضى الجنود السوريون ذوو الرُّتب السفلى ربع قرنٍ من
أعمارهم في لبنان.

1 آب 2015

4. أحداث البدو، أيام السويداء الدامية عام 2000

(لك كل التحية والتقدير الدكتور نجاة، في عام 2000 أصبتُ بطلق ناري بقدمي وتم إجراء عملية جراحية نوعية من قبل الدكتور مفيد عامر، وعلمتُ مؤخراً أنك ساهمتِ بإنجاح هذه العملية، وأنقذتما قدمي من البتر. أودّ أن أشكرك مع العلم أنني قد تأخرت وقصّرت بواجبي...).

هي كلمات رسالة وصلت باسم صاحبها الصريح (ب. ح) إلى بريد صفحتي الشخصية على الفيسبوك في 2014/12/2. ربما رأى ب. ح اسمي مصادفة، فتذكّر أنه لا يزال ينعم، منذ أربعة عشر عاماً، برجلين كاملتين كان يمكن أن تكون إحداهما مبتورة.

لم يكن لي أن أنسى تلك الجراحة، ولا الدماء التي سالت في «أحداث البدو». يومئذٍ لم أهتمّ باسم الجريح، ولن تحضرني الآن ملامحه. رأيتُه ممدداً على طاولة العمليات، غائباً في غيبه التخدير، عيناه مغمضتان بلصاقتي بلاستر، ومن فمه يخرج أنبوب التنفس الموصول إلى عبوة الأوكسجين. كانت رصاصةً حيّةً اخترقت ساقه ومزّقت شريانها الرئيس. ولأنه واحدٌ من جرحى ذلك النهار (إصابات كثيرين منهم في الرأس والصدر، أي أنها أخطر من إصابته)، لم يأتِ دوره في الجراحة إلا مع حلول الليل، وكانوا نقلوا له حتى ذلك الوقت

عدّة أكياسٍ من الدم الطازج، ونزفَها كلها. كان جميع الجراحين منهمكين بعملياتٍ أخرى، ووجب عليّ، أنا جرّاحُ التوليد الخريجة حديثاً، أن أساعد جرّاح الأوعية الوحيد في المشفى في عملية وصل شريان (ب. ح) الممزّق. عمليةٌ تجاوزت ثلاث ساعات. أنجز الجرّاح عملياته، وعند الاختبار حرن الدم ولم يجرّ عبر الوصلة المتقنة. أعاد المحاولة، ولم يسرِ الدم. محاولةٌ ثالثة، أيضاً فشلت. بدا الجرّاح الماهر في غاية الإنهاك، لم يكن غادر غرفة العمليات منذ الصباح، تنقلّ بخبرته الطويلة، وبالطاقة الاحتياطية، وبطاقة الصبر، وطاقة الإيمان من عمليةٍ إلى أخرى، لكنّ حزنه الآن أبلغ من إنهاكه حين وجد نفسه أمام خيارين مرّين: إمّا بتر ساق الجريح إنقاذاً لحياته، (إعاقةٌ مبكّرةٌ لشابٍّ كان في وافر العافية)، أو أن يتركه يموت الآن في ثلاثين عمره. عزّى الجراح نفسه أن في إمكان الجريح أن يصل ساقه المبتورة بطرفٍ صناعيٍّ، وقد تطلّ قرمةٌ ركبته متدلّيةً إلى الفراغ بينما يستند في مشيه إلى عكازٍ بدائيٍّ، فالمهم أن يبقى حيّاً. كاد ينطق بالتحضير لعملية البتر حين صرخت له من جوفٍ محترق: «أرجوك يا حكيم! إنه الجريح الأخير في معمعة اليوم. أرجوك؛ محاولةٌ أخيرةٌ قبل قرار البتر...».

كان الليل قد انتصف، والطاغم كله يتلوّى من التعب. ولم يتردّد الجرّاح في محاولةٍ أخيرة، ونجح، وسرى الدم في الساق الذابلة. وسط فرحته الهائلة سألني الجرّاح: «وهل كنت واثقةً من أنها ستنجح؟».

«نعم، لقد تمتمت ببعض من كلمات كتاب الحكمة...».

كانت الصلاة رجاءنا الوحيد الباقي بعد أن هدّنا العمل والحزن والغضب. وإن كانت الصلاة ساعدتنا في العمل، إلا أنها لم تشفع لنا

بفهم: ما الذي حوّل المدينة بين ساعةٍ وضحاها إلى مرمىٍّ لأسلحة الأمن والجيش، ولماذا استباح هؤلاء حرمة المشفى، وجعلوها امتداداً لساحة حربهم على المواطنين العزّل، يتابعون إطلاق رصاصهم عليهم حتى وهم جرحى محمولون إلى المشفى للعلاج؟!

وُسّم ذلك العام باسم «حوادث البدو». حوادث بدأت شرارتها بين البدو والدروز، وانتهت بمواجهةٍ شاملةٍ بين الناس والأمن والجيش، وذلك في أول حكم الرئيس بشار الأسد.

لم يكن البدو الرّحل والدروز الحضريون يوماً أعداء. تعايشوا دوماً كفتّين تسعى كلّ منهما خلف رزقها، ولا تستغني عن الأخرى. مؤخراً توطن البدو في أطراف ريف السويداء والمدينة، وظلّوا يعتنون بمواشي الدروز طوال العام ويعطونهم منتجاتها وفق اتفاقٍ معلوم، ويحصدون زرعهم ويقطفون ثمار بساتينهم ويشتغلون لديهم كعمالٍ مياومين موثوقين.

اعتمد أهالي السويداء في أمنهم دوماً على الدولة، ولم يحاولوا امتلاك أسلحةٍ فردية، فيما اعتاد البدو على التسلح اللازم لحياة الترحال. ومن وقتٍ إلى آخر، دأبت فروع الأمن على افتعال الانتهاكات عبر بعض البدو المرتبطين بها لتُشعر الأهالي دوماً بحاجتهم إلى حمايتها، ولم تتدخل حين كان عليها أن تفعل. كانت اللعبة مفضوحة إلى الحد الذي ولّد احتقاناً كبيراً تفاقم مع مقتل أحد شباب الدروز على يد بدويٍّ أطلق أغنامه في كرمه.

هَبّت المدينة وقرائها في ساعات قليلة. حمل طلاب الثانوية العصي وجالوا على المحلات مطالبين التجّار بإغلاقها وإعلان الإضراب العام حتى القبض على مسبّب الفتنة من زعيم البدو. اعتصم الألوّف

أمام السرايا (دار المحافظة). كان مطلبهم الوحيد أن نفي الحكومة بالتزامها في حماية الأهالي، وأن تكفّ عن تحريض البدو على ترك مواشيهم ترعى في منطقتي الاستقرار الأولى والثانية، وألا تتغاضى عن تكديسهم السلاح وإشهاره في وجوه الأهالي.

وبسرعةٍ هائلة انتشر الجيش والأمن بأسلحتهم الكاملة ودروعهم الواقية في ساحات المدينة، وكأنهم يواجهون حركة تمرد قد يكون هدفها إسقاط حكومة الرئيس الجديد، لذا يجب إخمادها بالرصاص بدلاً من النظر في أسبابها. سرى حظر التجول دون تنبيهٍ أو إعلان، وأطلقت القنابل المسيلة للدموع في كل مكان. كنتُ على الطريق أمام عيادتي حين سقطت أمامي قنبلةٌ غيّبتني للحظاتٍ عن الوعي. أذكر أنني استخدمت بلوزتي ككمامةٍ وجاهدت في التفكير كيف يمكنني أن أستدعي ممرضتي من الطابق الثاني لنهرب معاً.

قتل الجيش يومئذٍ نحو عشرين شاباً من الدروز في أثناء احتجاجهم، وتجاوز عدد الجرحى مئتين. خرّجتُ إدارة المشفى جميع مرضى الأمراض الربانية ليتسع المكان لجرحى الحرب المفاجئة. بعضهم تقاسم السرير مع جريحٍ آخر، وبعضهم فُرش له في ممّرات المشفى، وفي جناح الأطباء، وعلى شرفات جميع الأقسام. لم تكن الطواقم مدربةً على خطط الطوارئ. حضرت جميع كوادر الصحة طوعاً إلى العمل دون أن يستدعيها أحد، تسيّرها النخوة أكثر من الخطط المنظمة في حالات كهذه. اشتغل الأطباء في الجراحة والتمريض وطبيّ الشاش والتنظيف والتنظيف ونقل المرضى، وتسبقوا إلى التبرّع بالدم. سائقو التاكسي الذين أوصلوهم إلى المشفى رفضوا أخذ الأجرة منهم.

معظم القتلى والجرحى كانوا من فئة الشباب. لم يسعهم الوقت ليفهموا لماذا قوبلوا بالرصاص. من بينهم شابٌّ ابن عشرين عاماً،

خريج المعهد الصحيّ المتوسط، لم يكن بين المحتجّين. كان جاء إلى المشفى ليكمل أوراق توظيفه، وأصابته رصاصةٌ جرحَتْ ساقه، وخاطوا جرحه، لكنه مات. تبين أن رصاصة (دمدم) كانت اخترقت ظهره وانتثر الخردق في أحشائه ونزف ببطء حتى مات. كان في جيبه طابعٌ بريدي، و10 ليرات، وساعة يدٍ قال والده إنه استعارها منه.

امرأةٌ وحيدة كانت بين القتلى. كانت على شرفة بيتها مقابل المشفى تنشر الغسيل. لم تصدّق أن المشفى يمكن أن يطوله الرصاص. هوت على وجهها ويدها ممسكة بالحبل، وهوت فوقها شراشفها البيضاء لتستر رعبها.

في ذلك اليوم ارتدى الرعب المدينة، وغاب عنها الوعي والفهم والعقل. اندفع الشباب للهجوم على بيوت البدو البريئين يحرقونها ويشبعون ضرباً من لم يهرب من أصحابها. أحد الأطباء كان بدوياً، انهمك في إسعاف الجرحى كما رفاقه، ولم يعلم أن الشباب في تلك الأثناء كانوا يحرقون بيته.

...

انتهت تلك المواجهات بأن أصدرت نقابة كلّ من الأطباء والمحامين والمهندسين بيانات استنكارٍ لم يكثرث بها أحد. لاحقاً تمّ تعويض الجرحى وأهالي القتلى بمبالغ مهينة، وبعد وقت ليس بالطويل، عاد البدو إلى بيوتهم وإلى أعمالهم المشتركة مع الدروز، ولم يُلقَ القبض على رأس الفتنة بين البدو.

لكنّ «إنجازاً» كبيراً تلا تلك الحوادث، فسببها أنشئ في السويداء فرع المختبرات الجوية، السيئ الذكر.

تموز 2015

بعض يومياتنا خلال الحرب

5. أنت حيٌّ إذا!

أنت حيٌّ إذا! تُخفي إنجازك الرفيع هذا؛ كأنه عيبٌ أو خطيئة. فأنت، بعينيك غير المطفأتين، شاهدٌ حيٌّ على قدوم سنة جديدة تواصل الحرب دمعها بالأحمر القاني. حربٌ كاملة الأوصاف، وشديدة الفخر بإتقانها كل صنوف الموت، فيما أفلتت أنت، لتبقى الشاهد الحيّ على نقصانها. ولربما أنت جريحٌ أو منكوبٌ أو معطوبٌ أو ثاكل أو مهجور، إنما أنت حيٌّ، ولا تزال في بلدك، بل في بيتك بالتحديد، تتأمل طبق القش هذا الذي أورثتك إياه جدّتك، لا يزال معلقاً في مكانه على الجدار، ولم يُسرق ولم تشحطه قذيفةٌ نحو تلال الركام التي غدت تضاريس لبلدك. تُغلق مصفاة قلبك على شكرٍ خجول، أنك تامّ السلامة من دمارٍ شامل اسمه الحرب، وأنتك تعي أن سلامتك تعني ضمناً موت آخرين لا تعرفهم أنت، كان يمكن أن تكون يد أحدهم تخطّ هذي الكلمات الآن بالإنابة عنك. وأنت المأخوذ ببهجة البقاء حياً، لم تعتذر لهم بعد عن حياةٍ كسبتها بمصادفة أنهم ماتوا!

قد تعتذر، إن كان الاعتذار يكفي؛ بأن تحمل فكرك ومعولك، وتمضي في فرصة العيش الباقية.

هي الفرصة الضائعة إلا قليلاً.

فرصتك في أن تمتلك قلباً، في ألا يموت فيك الشعور، في أن تنشر الجمال وسط وابل الألم، في أن تتفهم المنكوب وتتعاطف معه على قدر الأسى والضيم الذي نابه. في القدرة على تجرّع الصبر كوسيلة للبقاء، من دون التخلي عن الكرامة.

في التثبّت بـ«ضرورة الكرامة»، وضرورة حصّتك الشخصية من الكرامة.

فرصتك في استقلال رأيك، في إعمال العقل، وصونه من المصادرة، وفي الحرص على الضمير، والإخلاص في العمل.

في البحث عن أفراحك الصغيرة، في أن تخلق الرغبة في الحياة، في أن تصوغ لنفسك حياةً كثيفةً وسط عبث الموت.

في ألا يغتالوا منك الحلم، وألا يُفقدوك متعة الخيال ولا سعته، ولا المتعة والدهشة في طريق البحث عن المعرفة.

في إدراك هويتك الآدمية، في ألا تدمرها بإيديولوجيات السلطة والدين المسيّس.

أخيراً، فرصتك في اليقين بأن مارد الحياة الذي استفاق فيك، هذا المارد المنكوب والثاكل والحزين حتى الأسى، لن يعود في أيّ حالٍ إلى عنق الزجاجة.

هي فرصته أن يقول للطغيان: لا! هنا وسط لهيب الوطن، لا في برد المنفى.

17 كانون الثاني 2015

6. في عيادة الطبيب

تلك الحمى الغامضة التي تنهش الأرواح في ليالي الحروب؛
ليس الحديث عن حمى المصاب بموت أحد أفراد عائلته أو عائلة
قلبه، أو مَنْ جُرح أو فقد عيناً أو يداً أو رجلاً، أو قُصِف بيته وصار في
العراء، أو نزح إلى ذلّ المنافي، أو هام في البلاد فاقداً المأوى وفرصة
العمل ومصروف الجيب؛ فهؤلاء، إن لم تنصفهم الأرض، يتطلّعون
إلى عدالة السماء، ويحتاجون جهوداً مؤسسية قد تركن جراحهم
المفتوحة، لعلّ نزعها أو قيحها يركن قليلاً.

الحديث هنا عن الجموع التي لم يطلها فقدٌ شخصي، لكنها فريسة
الشدّات الجماعية في الحروب، حين تهوي أركان الدولة وينعدم
الأمن، ويعمّ الفقر والبطالة والعنف، ويتسيّد الأذئاب. وحين لا ماء
ولا كهرباء، ولا دفع، ولا نقود للطعام أو للعلاج، أو لشراء ما يلزم،
أو لإصلاح ما تعطلّ. وحين ينفد الصبر والحبر والكلام، ولا تنتهي
القائمة.

جموعٌ تبدو سليمةً معافاة، وتحت العافية الخادعة يختبئ وهنٌ
كثير لا يزال يتراكم شدةً إثر شدة، ويُردى عديدهم في عجزٍ أو ذهولٍ
أو فصام. يطويهم نهاراً بين السباب والشتائم، أو التطنيش أو السهو

والتناسي، أو هبوط المزاج، ونقص التركيز واضطرابه، والتشاؤم والعصبية والاكئاب وسوء الأداء في العمل، والتفكير في الهرب والعزلة والانتحار، أو الميل اللاواعي إلى العنف وأذى النفس والمحيط. ولبلاً وسط العزلة والوحشة والخوف والرعب والرؤى السوداء، والأرق المقيم.

لا تشهد عيادتي النسائية إلا فصولاً خجولةً من عروض هذا السيرك الادمي الحى والمباشر والموصول والآخذ في النماء والتنوع والترقى. شكاوى صريحة أو مبطنّة عن أوجاع بعينها أو أخرى مبهمّة، تحاول النساء أن تصفها، فتخرج الكلمات مبعثرة لا تركيز فيها ولا منطق، وكثيراً ما تتطوّع ملامح الوجه للتعبير حين ينضب الكلام.

امرأةٌ تقصد الطيبة فقط لتحكي، لتلبّي شهوة البوح بارتياح، أمام من تصغي إليها باهتمام، فلا تصدّ سيل حكيها، تركها تحكي إلى ما تشاء، والطيبة تدرك أنها لا ترجو منها أكثر من أن تقول: نعم، أنا أفهمك.

امرأةٌ لا يُسمح لها بالخروج من البيت متى تشاء، وتخفقها الأعباء ويخذلها الصبر وتضيق بها الأرض، فلا تجد ذريعةً للخروج من البيت إلا إلى ملاذٍ حصين كالعيادة، أو إلى صدرٍ كاتمٍ للسّر كما على الطيبة أن تكون. هناك تبكي وتعترف بأسباب قدومها كما لو أنها خطايا، وكما لو أن الطيبة كاهنةٌ طيبةٌ وصبورة. سيكفي تلك المرأة أن تفرغ شحنات قهرها، وتعود إلى بيتها وقد استبدلت بها طاقةً تعينها على يومٍ جديد.

أو امرأةٌ تشكو ألماً أو نزفاً أو كتلةً طارئة، وترفق شكواها بكثيرٍ من التهويل أو الرعب، أو تطلب صكاً مهوراً يختم الطيبة للتأكيد الموثق بشفاعتها أن حالتها لا شكّ نادرة وتتطلب من عائلتها أن تفرغ كلياً للعناية بها.

صارت العيادة تغصّ بالراغبات في الإجهاض، حتى لو كان الحمل مخططاً له قبل الحرب، أو لو كان مكان الوليد القادم لا يزال شاغراً في الأسرة الشابة، وحتى لو كان هذا الحمل هو الفرحة الأولى في حياة الأسرة، إلا أن حال الحاضر لم تعد تسمح لها بالمضيّ فيه.

على العكس، ترى نساءً تجاوزن سنّ الخصوبة، وكنّ أنجبن ما اشتھين من الأبناء والبنات، تراهنّ يستمتن الآن لإنجاب صغير جديد، ربما لقتل الملل وكسر روتين الرعب اليومي، أو لتعويض إنجازاتٍ أخرى كانت قاب قوسين وبددتها الحرب.

تتهافت النساء على طلب عمليات التجميل، أو العمليات الباردة التي يمكن تأجيلها لسنين، فيسارعن لبيع المصاغ أو تبديد المدخرات أو الاستدانة من الأهل والأصدقاء، أو بالفائدة المركّبة، ليُجرين هذه العملية اليوم وليس غداً، لعلّ حياتهن تتلوّن بحدثٍ ما، حتى لو كانت تكلفته جرحاً ولزوماً للفراش ومصاريف ماديّةٍ عسيرة السداد.

نساءً لم يكنّ يلتفتن إلى عافيتهن أو إلى الفحوص الدورية الوقائيّة، أصبحن الآن يتسابقن إلى إيلائها الأهمية القصوى، كأنها رفاة لا يرغبن في أن يحرمن أنفسهن منه بعدما حرمنها أبسط الرغبات الإنسانيّة.

نساءً يحضرن إلى العيادة بلا موعد سابق، ولسن في حالةٍ تستدعي الفحص الإسعافيّ، ويطلبن مقابلة الطبيبة قبل جميع المنتظرات لأنّ حالاتهن (لا تسمح بالانتظار)، هكذا من غير تبريرٍ ولا تفسيرٍ ولا لومٍ للذات. كأنّ الضجّة أو الشغب الذي يُثرنه في العيادة يمنحهنّ شعوراً بالأهميّة، أو بأنهنّ يملكن صوتاً يجب أن يعلو في مكانٍ ما حتى لو كان عيادة طبيبة.

نساءً يبكين كالأطفال طلباً للعقاقير المهدّئة.

ترى هل يكفي الإصغاء، والإنصات والتفهّم والتعاطف والنصح،
أو حتى الوعظ المرتجل؟

هل يغني هذا كله عن ختام الوصفة الطبيّة التقليدية بدواءٍ مهديٍّ أو
رافعٍ للمزاج، أو جالبٍ للنوم من علياء غيابه؟
مَنْ يُنصت إلى الناس الذين تُركوا في حيفٍ لا يُكتَب بالكلمات؟
مَنْ يتكفّل بمواساة الأحياء القابعين في القاع، المزرويين في بلدٍ
غداً سجنًا جماعياً تهوي حياتهم فيه إلى لا مقرر؟!

28 شباط 2015

7. حين انكسرت يدي

في كلية الطب، يبدأ درسُ تشريح اليد بفكرة: كي تختبر وظيفة اليدين في حياة الإنسان؛ جرّب أن تحبس يدك اليمنى أو اليسرى، لا فرق، في جيب جاكيتك لساعة نشاط واحدة، ثم حاول البدء بأي عمل. قد تمضي دقيقةً أو اثنتان قبل أن تكتشف أنك لن تستغني عن إحداهما لإنجاز أبسط الأشياء. هذا من غير أن تكون اليد مريضةً أو مصابةً أو مكسورة العظم، ومؤلمةً كما لا يطيق جسدٌ ولا عقل.

كان أن وقعتُ على أرض بيتي. كم طال الوقت قبل أن أصحو من سقطتي؟ لا أدري. الكهرباء مقطوعة والدنيا عتم، أحاول رفع رأسي لأعي أين أنا، كنتفي اليمنى رخوة وساخنة. أحثّها لترفعني عن الأرض؛ تحرن هذي اليمين التي كانت كل العمر طائعة. ربما سُلت؛ أقول لنفسي. ربما لن أستطيع الجراحة أو الكتابة، أو حتى غسل وجهي، إلى أمدٍ لا أعرف كم سيطول.

لا ألم بعد، فقط نذير عجز.

انتفضت يدي اليسرى كفدائية تستبسل لتحمي أختها المنكوبة. انسلتُ وعبرت من تحت جذعي لتلاقيها وتحضنها بكلّ الحنان الممكن. نسيّت اليسرى كلّ مهارات عمرها باستثناء حمل أختها

ورفض إفلاتها. صار تحالفُ الأختين غير مشروط حين بدأ الألم. أوه! أيّ ألم كان ذاك! لا ألم الضرس ولا ألم نوبة الكلى ولا ألم المخاض. صعقات كهرباء تفتق حنجرتي وتبعث منها صرخاتٍ وأصواتاً ربما تعود إلى ذلك الإنسان البدائي حين كان لا يزال وحشاً، زعيقاً أشبه باستغاثة حيوان خرافي لا اسم له ولا شكل. ألمٌ لا يقابل إلا باستسلام خالص، ألمٌ مجنونٌ استحضر أمامي عذابات المعتقلين في السجون. حين استطعتُ الجلوس، ووجد ظهري له متكأً على الحائط، راحت أفكاري إلى حيث لم يسعها الوقت يوماً أن تذهب. وقوعٌ كهذا يشبه الوقوع في العشق؛ يعقبه صحوٌ وتذكار. العاشق يتذكر، والمريض يتذكر. أواجه نفسي بسؤال ما أخفّه وما أثقله: يا بنت، يا أنا؛ كم مضى عليك من السنوات في دوامة العمل؟! هل كان يجب أن تقعي مشلولة اليمين لتحسبي أن ثلاثة وعشرين عاماً وشهرين وبضعة أيام قد مضت وأنت تشتغلين بلا يوم عطلة أو عيد؟! جرّبي الآن أن تذوقي طعم الحياة بعيداً من ضغط العيادة أو مشاوير الليل إلى المشافي.

رسمت صورة الأشعة كسراً متفتتاً في أعلى العضد، وانقلاع العضلة المستندة إليه وتمزّقها. في اليوم التالي ارتسمت تحت جلد يدي ألوانٌ مفزعة: أخضر من لون الحشيش إلى ظلال العفن القاتم، قرميدي كآثام الخريف على أوراق الشجر، بنفسجيّ غامق كالأسى، أسود كالليل. كل ألوان الوحشة ارتسمت على اليد التي انتفخت بكسرها وآلامها ونزفها وغدت بضعفيّ حجمها الطبيعيّ. انضمت إليها بعد يومين ألأم رضوضٍ متفرقة كانت صممت من قبل خجلاً من أوجاع يدي. مساحات زرقاء وخضراء وسوداء على رجلي ومرفقي الأيسر، الركبة اليمنى مكشوفة الجلد. ظفر إبهام القدم اليسرى مقلوعٌ من سريره. هل سيشفى هذا كله؟!!

التفّ الرباط حول يدي إلى كتفي وعنقي، والضمادات حول الجروح الباقية، وبكمشة من المسكّنات هجعتُ قليلاً. بقي أن أستوعب أن سقطةً غافلة قد تحيل إنساناً فاعلاً إلى كيان معاق يعوزه من يراعاه.

هل كان عليّ أن أستسلم؟! لن يعدم ذو عقل ولسان وسيلةً للخروج من أي محنة. عليّ أن أبدأ حياة موازية ما دامت الطبيعية متعدّرة.

بيدي اليسرى، وبخطّ تلميذ في الصف الأول ابتدائي، كتبتُ نقلاً عن (النت) قائمة بأسماء الأغذية المرمة للكسور. أين يوجد الكالسيوم والبوتاسيوم والمغنيزيوم والفوسفور وفيتامين D، K. فعدا الحليب والبيض تبين أن هناك عشرات الأطعمة البلدية اللذيذة ملأى بهذه المعادن: اللوز، الزبيب، التين المجفف، الفليفلة الخضراء، السبانخ، الخس، البندورة، البازلاء، الذرة، البطاطا والبطاطا الحلوة، الملفوف القنبيط (ما أطيب شوربة اللبن بالقنبيط! هل كان الكسر لازماً لاكتشفها؟!) وأيضاً البقول والحبوب الكاملة. القمح المنبت، غذاء الحياة. وبالطبع اللحوم، ولأنني لا أحبها استعصتُ عنها بالسردين والتونة.

قسمتُ طعامي خمس وجبات صغيرة ترمّم الكسر وتحمي من زيادة الوزن، وفوق ذلك تحمي من كآبة الجوع وردود الأفعال غير المتوازنة.

خاطبتُ جسدي ككائن مستقل: أيها الطيّب، يمكننا أن نتفاهم. ليس هيئناً ما ينتظرك، سأطعمك وجبات صحية خفيفة وكثيرة كرسائل الغيم إلى البشر، تحييمهم وتجعلهم خفافاً كالعصافير. أيها الأليف صدّقني، ستفهمني وتطيعيني. أعرف أنك لا تحبّ الحليب. لا عليك. اللبن جيد

وأنت تحبّه، وستحبّ السردين هكذا وحده من غير خبز. سنطرد زنخته بالليمون والفلفل. سأطعمك براعم القمح كأنك ابن الطبيعة الوحيد والمدلّل. تذكّر أننا لن نستطيع الحركة قريباً، وليس مسموحاً لنا بأن نسمن. سنقاوم. سنحاول وسننجح.

حلّ الخصام مع النوم. أرقّ ظالمٌ لا يريد المهادنة. أخاف الذهاب إلى السرير الذي تراكمت عليه مخدّات البيت، توزعتْ خلف ظهري وعلى جنبيّ علّها تمنحني وضعية مريحة تستدعي النوم في وضعية الجلوس. أغمض عينيّ أستمطر النعاس البخيل ليزورني متى شاء. أفتح له بوابات الدعاء وأنتظر. أفرح به إن لبّاني، أعانقه وأغيب في مدن النوم القلق. تصبح ساعةً متواصلة من النوم عيداً أفيق بعده بكامل صحوي وألمي. أتمشى بين الغرف أو على الشرفة. أعبط الأطفال اللاهين على الطريق بألعاب لا تنتهي. أو أنسج حديثاً متخيلاً بيني وبين عابر نادر، ربما كان في وسط المدينة، ربما يُسمعي خبراً طازجاً عنها. أحمل بيدي الكتاب، أقرأ ولا أركّز تماماً، فأنا مضطّرة إلى اختبار سلامة خطواتي خشية عثرة جديدة.

في المقابل كرّرتْ سلسلة مهارات مكتسبة ما كنت أحسبها ممكنة، بدأت اليسرى تكتب وتتخفف من ثقل أصابعها حول القلم، وصارت تنقر لوحة مفاتيح الكمبيوتر، وتفتح المرطبان بعد تثبته بين ركبتيّ مهما كان إغلاقه محكماً، وتثّبت علبه معجون الأسنان بين الإبهام والسبابة بينما أفتح غطاءها بأسناني، أو أثبتّ الصحن بين ذقني وعنقي بينما أحمل باليسرى فنجان الزهورات إلى الغرفة لأختصر مشواراً إضافياً بينها وبين المطبخ. وتدرّبت أصابع قدميّ على التقاط المحرمة أو الجوارب عن الأرض ورفعها إلى يدي.

حلّ عيد آخر حين تعلّم زوجي كيف يربط لي شعري. تلبّك كثيراً

قبل أن يقول لي: قصّيه. يظنّ هذا الطلب سهلاً على امرأة. تألم قلبي
لكنني لم أغضب. الزوج المحبّ يعادل قبيلة أهل، كان يتدرّب كل
يوم على تثبيت ملاقط الشعر وإتقان تسريحة ذيل الحصان وتمييز
(الكريم) الليلي من النهاريّ. بحنان كثير كان يعيد ترتيب المخدات
ويغطّيني ويكمكرنني حتى أذني كي لا يجمدني برد الليل. تحمّل عناء
الجلي لأيام ثلاثة قبل أن يحتجّ بل يستنكر: لن أحمّل أكثر، لنأت بمن
يساعدنا في أعمال البيت! انتظرتُ حتى الصباح لأجيبه: لكنني طوال
هذي السنين أجلي وأمسح وأكنس إضافة إلى مهنتنا العسيرة، هل كنت
تسمعني أشكو؟!

ربما يتشابه المصابون في ملامح أحزانهم على اختلاف عمقها،
ويختلفون حول ما يقلق أحدهم أكثر من سواه. ما أخافني هو الفراغ
الذي صرت فيه. قلت لنفسني لن تقفر الحياة ما دام فيها كتبٌ وأهل
وأصدقاء. هؤلاء حضروا سنداً أمناً. منهم من صار أيقونةً سريّةً شفيعةً
سرت بي إلى خدود الغيم.

على غير انتظار، تنفتح نافذة عريضة إلى داخلِك، إلى جوهر
روحِك. ترقبينها بصفاء وحياد رقيق. إنه السلام المشتهى. لم أسأل
ربي: يا ربي لماذا أصبتني؟ أو يا ربي لماذا أنا دون سواي؟ أو صنتني
أمي بالأ أنسى أن كل بلاء يدرأ ما هو أعظم منه، وبأنّ فيه حكمةً لا بدّ
آتي سأفهمها يوماً ما.

لن أقول إنّها حقبةٌ سعيدة، لكنها لم تكن بالغة السوء، فيها تدلّلت
كما لم أتدلّل في حياتي يوماً، بتفهم زوجي لكل ما انكسر في حياتنا
معاً. تدلّلت بالكسل والأصدقاء والهدايا والطبخات اللذيذة من أهلي
وأحبّتي يأتونني بها والبخار ينبعث منها رسولٌ حبّ وتعاضد. أمضيتُ
وقتاً رائعاً أمسح فيه أوراق زريعة البيت وأفتح قصاصات أوراق

القديمة، وأفكر في أشياء شخصية عالقة لم يُنح لي التفكير فيها وسط وطأة الهم العام. وأسمع الموسيقى.

تهمس الموسيقا: شكراً للنكبات!

في المحن يسندك غرباء لم يكونوا في دائرة انتباهك. لا بأس أن تعترف في كم كنت عاقّة وكم كانوا أوفياء صامتين! ويجافيك أصدقاء كانت لك فيهم آمال كبيرة. تتلبّكين بين ألمك لخسارتهم وفرحك بكل يد جديدة تسلم منك همّاً وترسم نقشاً حانياً على أديم روحك. البطانية التي بعثت بها أختي كانت بدفء أختٍ ووهج مدفأة، بينما أختي نفسها في منطقة سكنها المحاصرة لم تستطع أن تزورني. تولّت ابنة أختي الأخرى تشذيب حاجبيّ وتزيين أظفاري وتمسيد فروة رأسي باحتفالية، بلمسات ولا أرقّ منها. هي المراهقة المبتدئة التي تركض بخطى فائرة صوب هودج النساء، وتدرّب بي على فنون زيناتهم.

أخيراً، بعد ستة أسابيع، نزعْتُ هذا الرباط عن يدي، شكرته سنداً وأماناً، ثم اعتذرتُ منه قبل أن أرميه بعيداً عن مدى يدي: سامحني! لم أعد أطيقك، فأنا معافاة. معافاة.

ربما كان زوجي على حقّ، فقد قصصْتُ شعري في آخر المطاف. صارت خصلاته الضعيفة تعلق بين أسنان المشط وتهوي منها على الأرض كبباً سوداء مفرّعة. إنما صار يمكن ليدي اليمنى أن ترتفع لتلمس وجهي بألفة كأنها لم تُهجّر قسراً عنه منذ أسابيع ستة. أسير الآن لكن بضعف. أتحرك ببطء. أعيد التدرّب على الحياة. أستطيع احتمال ألم العلاج الفيزيائي وإعادة تأهيل يدي التي ستعود إلى الحياة كوليّد طريّ الزغب لا بدّ من أن يشدّ عوده يوماً، كما بلدي، سوريا الوحيدة، الفريدة التي ستقوم يوماً من انكسارها الفادح.

كتب لي صديقي طلال يداويني من منفاه: أرجوك اكتبني عن
اليد المكسورة، عن أيادينا المكسورة، عن تفاصيل عيشنا في عزلتنا
الحاضرة!

وها أنا ذي، بعد بدء العافية، أكتب لأخبر كل ذي ألم أنه ليس وحيداً
في هذا العالم. أكتب بعد إبرامي اتفاقاً مع طبيبي الرائع أن أعمل معه،
لا كطبيبة، بل كمريضة سابقة، لتشكيل فريق دعم نفسي يؤازر مرضى
الحوادث أو السقطات التي لن تنتهي ما دامت الحياة مستمرة.

12 كانون الأول 2015

8. أنا السوريّ في لبنان

أنا السوري في لبنان، أنا الذي لم يجتذبني لبنان الأخضر الحلو ولا لبنان الأزرق الأنيق. أنا الذي منذ خمسين أو ستين عاماً ورثتُ العمل فيه من أبي، أبي الذي لفظته بلاده فانحنى لأقداره الكافرة خارجها. أجيء إلى لبنان حين تناديني فرصة عمل، وأستبشر خيراً بدوامها حين يتصالح السياسيون، وأجمع أغراضني القليلة لأغادر حين تتفجر خصومات زعاماته مع زعيمنا الأوحد.

هو حالنا الذي لم يتبدل، أنا ومئات الألوف من السوريين أمثالي لم نجى يوماً سائحين، لا قبل زلزالنا السوريّ ولا بعده، ولم نقصد يوماً أن نغبّش جمال الله في لبنانكم. أحببناه مثلكم لا لجماله، إنما لاحترامنا لقمة العيش فيه.

حواني لبنانكم هذا على امتداد شبابي. أودعتُ ذخري روعي في الخدمة عند خواتمكم، على أن أنال لقمتي بشرف.

ما كان لديّ الوقت لأشمّ عبق الصنوبر، أو أستحمّ بندي الجبال إلا عبر نوافذ القصور التي وظّفني أصحابها حارساً أو خادماً لها، في حضورهم وفي أسفارهم إلى مهاجرهم.

ولم أدخل مقاهي الحمرا ثم (السوليدير) لأشرب البيرة الباردة

أو النيذ الحلو. كنتم تروني ساهراً فيها كل ليلةً لأملأ كؤوسكم حين
تفرغ، وأبدل نفاضات السجائر حين تمتلئ، وأنظف الصحون من بقايا
أطياب الطعام، وأحرص على أن تعود لامعةً أمام من سيأتي بعدكم،
ولأكنس الأرض بعد أن يغادر الجميع في سياراتهم ثملين سعيدين إلى
شققهم العصرية. أغادر منطفئاً من الأسى والتعب، أسرع في المشي
لأفرد إسفنجتي الرقيقة، وأمدّ فوقها بطانيتي الأليفة، رفيقتي القادمة
معني من سوريا التي أحب، سوريتي المحبوبة التي لا تزال تنكرني!

ما كنت أملك لا المال ولا الوقت لأشمس جلدي تحت شعاع
الشمس على رمل شواطئ جبيل، ولا ملكتُ لا المال ولا الحظ السعيد
لأسترخي على خملة المقاعد الوثيرة في كازينو لبنان، أو أنادم القمار
وأحلم بريح يسافر بي إلى خدّ القمر.

وما كنتُ أذوق أكواز الذرة ولا حبات الترمس والفول النبات الذي
أبيع على كورنيش الروشة، ولا دللتُ نفسي من كسبي بسريرٍ وثيرٍ أو
بثياب ماركة، أو حتى بعلكةٍ تعطرّ فمي وتطرّد طعم الريق المرّ من
حلقي.

وحرصتُ، كما أوصاني أبي، على الرضا بالمهن التي لا ترتضون،
والرضا بأقل القليل من الأجر، وانتظار الكثير من الفرح حين يصير هذا
القليل بين يدي أطفالي في سوريا.

وليس ذنبي اليوم أن الملايين من أهلي السوريين حلّوا على
أرضكم ذاهلين ومحتمين من كل فنون الموت.

هم مثلي لم يأتوكم سائحين. هي، لو شئتُم أن تسمّوها، سياحةً
(بالصرماية)، لا حلماً بلبنان الأخضر أو الأزرق.

فهم، بعد أن لفظتهم بلادهم، لن تحلو في عيونهم أيّ أرض.

هو نزوحٌ كنتم اخترتموه من قبل، في كلِّ حربٍ نهشت لبنانكم الوديع. ولم يصادف أبداً أن قيّد السوريون رجالكم ومددوهم وسط الطريق دروعاً بشرية، ولا جلدوا أطفالكم ولا تركوا نساءكم يشحذن على كل رصيف.

كان أليقَ بكم، لو تتفكرون أن حالكم أمس هو حالنا اليوم، وأنّ تفهّم حالهم هو صورتكم في مرآة أنفسكم لا في مراياهم. يحق لي أن أحلم. فقط أن أحلم، أن يعلو صوت حلمي هادراً، كاسحاً ضعف حنجرتي. أن أصرخ في وجوهكم أنا وإخوتي في المصير. نحن لن نحمل العصيّ ولا الخناجر ولا المسدسات، ولن نشعل الدوايب في الشوارع والساحات، ولن نخطف من رجالكم أو أطفالكم أحداً.

سأحلم بأن نُضرب نحن - العمال السوريين - في لبنان كله يوماً واحداً عن العمل، أن نرتاح في ماؤينا يوماً واحداً من ترف العمل، ونتعزّى بالتمشاية المهلى علّنا نكتشف أخيراً بهاء لبنانكم الأخضر العامر، وقد نشقّى بنزقكم أمام أراكيلكم الخامدة، وفوضى مطاعمكم وعكر مسابحكم في غيابنا. نتابع السير في شوارعكم وقد طفحت بالأوساخ، ونشمت ببؤس أرففتكم حين لا تؤنسها أناشيد باعتنا الجوالين السوريين، وأنتم تسيرون فيها خجلين حتى بألوان أحذيتكم الباهتة وقد نأى عنها حنان البويجي السوري؛ حنان قلبه الأبيض الذي طالما سبق حنان يديه المملطختين بالسواد.

12 أيلول 2014

9. حدث في دارفور

هناك في حرب دارفور...

كانت الصبيّة الريفيّة الفلاحة تلفّ على رأسها شالها الأصفر، ويلتفّ ثوبها الأرجوانيّ طياتٍ حول جسدها الفتّي المعافى، وتتراقص يداها وهما تتسابقان إلى قطف أكواز الذرة...

كانت تقطف وتغني. كانت بكلتا يديها تقطف، وبكامل روحها تغني، وتصغي إلى هسيس الأخضر والأصفر، ومن حينٍ إلى حينٍ ترمق كومة الأكواز التي قاربت تملأ قفّة القش، ولا تنتبه إلى جوقة الجنود تقترب، تصغي إلى رخام صوتها، وتقترب.

جنودٌ؛ فتیانٌ من أبناء ضيعتها صيرّتهم الحرب جنوداً، وكبّرّتهم على عجل، وألّهبت مخازن (التستسترون) في أجوافهم التي شبّ فيها الحريق مع رجوع صوت البنيّة الرخيم.

وتقدّموا... الحرب تبيح لهم أن يتقدّموا، أن يدوسوا على قفّة القش، ويكتموا صوت الصبيّة، ويمزّقوا شالها الأصفر، وثوبها الأرجواني، ويصير للشال وللثوب لون التراب ولون الدم ورائحة افتراس الصبايا في الحروب.

تقاسمها الجنود الستة فرادى ومجتمعين ومرة واثنتين... وحين

ارتووا وأنهكوا من فرط ارتوائهم؛ فطنوا إلى أنها قد تشكوهم إلى أحدٍ ما ويحلّ بهم العقاب.

هي لا تعرف أسماءهم، لكنّها قد تستدلّ بعينها على وجوههم واحداً واحداً. قرّروا طمسَ عينها.

خزّقوا عينها بحراب بنادقهم. خزّقوا شاهديها اليتيمين على من تعاقبت أجسادهم فوقها، وأفرغت فيها كلّ ما عندها من لزوجةٍ ومن خوفٍ ومن عنف، وخلّفتها مطروحةً على أرض الحقل، موصومةً، عمياء، نصف مية، يسيل من عينها ومن وسطها خيط دمٍ رفيع، وتتحسّر أنفاسها في أنينٍ خافتٍ يحاول العلوّ ولا يستطيع.

ولكنّ أحداً، أيّ أحد؛ لم يسأل الصبية العمياء عمّن خزّق روحها وعينها، فلا أحد يسأل أحداً عما طالت يداه من غنائم الحروب.

ومرّت شهور، وصار عدد رفيفاتها المغتصبات بالمتات، وحضرت (طواقم الإنقاذ) من الهيئات الإنسانية الغربية، صديقة الشعوب المغتصبة، وتوزعت على مراكز إيواء النازحين، تحاول ترميم ما أتلفت الحرب من أرواح وأجساد. واستطاعت أن تجمع النساء اللواتي أقرنأنهنّ تعرّضن للاغتصاب، وبدأت معهن رحلة العلاج والدعم النفسي، ثم إعادة التأهيل بتعليم هؤلاء النساء مهنة أو صنعة تشغل العقل والوقت وتؤمّن مصروف الجيب.

ولأنّ الصبية قاطفة الذرة صارت عمياء، فلن يكون في مقدورها تعلم الحياكة أو التطريز أو صناعة الصابون أو خياطة الثياب مثل رفيفاتها. ولأنّ صوتها رخيّمٌ كالعافية، بدؤوا بتدريبها على مهنة الغناء. تغني للقادّات إلى المركز كي يصير حزنهن أقلّ، وللخارجات من الإيواء إلى الحياة، تزودهنّ بتميمة الأمل.

هي لن تبصرهنّ، ولن ترى ما ينسجن، ولن تنسج مثلهن، لكن
غناءها وحده كان خياطةً وتطريزاً وصابوناً معطّراً.

...

حدث في دارفور، ويحدث في كل مكان بعيدٍ أو قريب.

كل النساء اللواتي افترستنّ الحروب، واللواتي يرغبن في العودة
إلى الحياة؛ كلهن يصرخن من غير صوت، على أمل أن يسمع صراخهنّ
الصامت أحد طواقم الإنقاذ.

كانون الأول 2014

10. صورة الرجل الأفغاني

كنا مجموعة أطباء ندرّب في ورشة عملٍ حول تنظيم الأسرة في سوريا منذ نحو عشر سنوات، وكانت برامج الورشات تأتي عادةً جاهزةً كأنها مرسومةٌ على البيكار في منظمة الصحة العالمية والصندوق الدولي للسكان، ومنهما تُعمّم خطط العمل ليس فقط في سوريا، بل في جميع دول العالم الثالث؛ هذا العالم العبء على حضارة الأرض. أضاءت شاشة العرض بصورة رجلٍ طويلٍ وشديد النحول، يتلقى هديةً من صبيبةٍ شقراء أنيقة.

في الصورة التالية يظهر الرجل نفسه وقد خلع بؤسه التلقائي في الصورة السابقة، وارتدى عباءةً عسلية اللون ومطرزةً الحواف بالذهبي، وأصبح في يده سيفٌ مطعمٌ بالخرز، ولا تزال الصبيبة الشقراء، ببسمتها الساحرة، تقف قربه، وحولهما رجالٌ كثيرون، وجوههم صفراء كوجه بطل الصورة، بيدون حزينين بلا عباءاتٍ ولا سيوف، أو ربما حالمين بها، وتبدو بيوتُ الصفيح خلفهم في الصورة التي التُقطت في إحدى قرى أفغانستان.

شرح المحاضر لنا أنّ الصبيبة الشقراء هي مندوبة منظمة الصحة العالمية التي ترأس فريقها الطبيّ لدعم مشروعها (الصحيّ) في تلك

القرية الأفغانية، وأنَّ إهداء العباءة والسيف كان أحد أساليب التشجيع ليوافق الرجال على عملية ربط الأسهرين، كوسيلة لمنع الحمل لدى زوجاتهم، وأنَّ الرجل في الصورة هو الوحيد من بين رجال القرية الذي وافق على أن تُجرى له العملية، فرجال القرية، كلهم، فقراء، لكنه أكثرهم فقراً وأكثرهم أبناءً.

للوهلة الأولى بدت لنا الصورة فاتنةً ومنصفة؛ أن ينال رجلٌ ريفيٌّ فقيرٌ ومنسيٌّ ما قد لا يحلم به من اهتمام وتكريم من أية جهةٍ كانت في دولةٍ مثل أفغانستان يأكلها الفقر ويجرح خاطرها النسيان والإهمال إلا من الحروب وأوزارها الهدامة.

في الصورة الثالثة التي التُقطت عن قرب للرجل الأفغاني والمرأة الشقراء وحدهما يبدو كتفُّ الرجل رخواً تحت ثقل السيف، والعباءة فضفاضةً جداً على جسده الشديد النحول، وعلى وجهه دهشةٌ أجبرته على فتح فمه فانكشف سقوطُ الأسنان منه، فيما تستمر بسمه المرأة الشقراء التي أنجزت عملها بمهنيةٍ لافتة.

صمتت الشاشة عن صور لاحقة، واستمر صوتُ المُحاضر يخبرنا أن الرجل صاحب الصورة مات بعد أيام.

لم يمت بسبب العملية التي لم تكن خطيرة، فهي مجرد عقدةٍ تُربط تحت جلد المغبن بعد التخدير الموضعي.
مات الرجل بالسكتة القلبية.

...

حاولتُ أن أبني في رأسي بيتاً لحكاية موته؛ هل خرس قلبه من فداحة القهر؟ أم انفجر دماغه لأنه لم يستوعب لماذا ابتلوه بهذا الاختبار القدر: امتلاكُ عباءةٍ وسيف، مقابل ألا تخرج نطفة واحدة منه

إلى الحياة على شكل ابنٍ جديد؟ أم نشف دمه حين وعى ما سلبوه؟ أم
فاضت روحه كمدأ حين لم يكن شجاعاً بما يكفي للدفاع عن رجولته
التي نشأ في مجتمعٍ لا يفهمها إلا من هذا المنظور؟!
...

وُضعتْ خططٌ كثيرةٌ لضبط تكاثر البشر على الأرض، وحاول
مُشرِّعوها، بصدقٍ وفيرٍ، تقديم برامج وآلياتٍ للحدِّ من الانفجار
السكانيّ في العالم الثالث، ولم تحصد من الثمار ما يعوّض تكاليفها
الباهظة. كانت بمجملها تنطلق من نتائج الكارثة لا من أسبابها، ولا
تُراعي، أو لا تنتبه إلى أنها في مفاصل كثيرة منها لا تأخذ في حسابها
مفهوم الكرامة لدى شعبٍ ما.

ترى هل كان موت هذا الرجل درساً حارقاً لمنظمة الصحة العالمية
وللسندوق الدوليّ للسكان، وللدول المانحة وللدول العبد على
الدول المانحة وللعقل الإنساني، ولمنظومة الأخلاق بعمومها؟

وهل يخفى على مصمّمي الحلول أنّ كارثة الانفجار السكاني هي
بنتُ التخلف والفقير والجهل، بنتُ الحرمان من التعليم، وأنّ دروب
الخلاص الفردي والمجتمعي طويلةٌ وشائكة، وأنها لن تبدأ قبل تنوير
أبنائها بالعلم، قبل أن يفيقوا ويدركوا بأنفسهم حقيقةً بؤسهم، قبل أن
يكتسبوا القدرة على القرار، ويسعوا بأنفسهم إلى طلب المشورة؟

وأنها؛ هذي الكارثة؛ لن تُجتثّ بالترغيب في تنظيم الأسرة،
ولا بالترهيب من فائض الخصوبة، ولا بالإكراه أو الإغواء بالهدايا،
ولا بتجاوز مقدسات الآخر ولا انتهاكها، ولا حتى بالتفكير عن هذا
الآخر؟!!

نيسان 2016

11. «آذر نفيسي» تكتب من إيران أشياء كانت ساكّنة عنها

«إنني ألعن الأنظمة الشمولية لأنها تعلق مواطنيها من نياط أفئدتهم!»!

«علمتني الثورة ألا أجد العزاء في مآسي الآخرين، وألا أشعر بالامتنان لأن أناساً كثيرين كانوا يتعذبون أكثر مني. فالوجع والخسارة، كالحب والفرح، فريدان وشخصيان؛ لا يمكن تخفيفهما من خلال المقارنة بالآخرين».

هو مقطعٌ في الفصل الأخير من كتاب: «أشياء كنت ساكّنة عنها»، هي ذكريات الدكتورة (آذر نفيسي)، أستاذة الأدب الإنكليزي في جامعات أمريكا، التي ترجمها إلى العربية «علي عبد الأمير صالح» من العراق، وصدرت عن دار الجمل عام 2014. تكتب د. نفيسي أنها حين بدأت بتدوينها لم تكن تطمح إلى أكثر من فهم نفسها أولاً، ومحاولة فهم ما يجري في بلدها العزيز، وفي العالم الذي عليها أن تنجز حياتها فيه.

ونحن - القراء - لن نحاول تخطّي طموح الكاتبة؛ مع أن المحاولة مشروعةٌ بل لازمةٌ! إلا أننا نحن أبناء الأوطان المنكوبة؛ لو استطعنا بعد قراءة هذا الكتاب أن نقطف بعض الثمار التي كسبت كاتبته، سنكون

جنينا ثروة الفهم والقبول الراقي لأنانية أو طاننا التي دأبت على التنكيل بنا، ولا تزال تطالبنا بأن نتابع إنجاز حيواتنا فيها، وفيها فقط، لا خارجها، مع أنها في أحسن الأحوال لم تترك لنا أوسع من هامشٍ ضئيلٍ لتدبير مصائرنا الفردية. وأيضاً؛ أن نقرأ الكتاب مترجماً إلى العربية، فهذا يعني أن نبصر أنفسنا في عيون من يروننا أعداءهم التاريخيين. هذي العداوة المحفوظة بحرص، والتي لن تطفو إلا في أوانها.

هل الكتاب سيرة امرأة أم سيرة بلد؟! كلاهما معاً. هو وثيقة تاريخية وتنقلُ أسرٌ وغير ملحوظٍ بين الخاص والعام، وبين الماضي والحاضر، وبين ظاهر الأحداث والعواطف الكامنة خلف ظلالها، وبين المسموح والمحظور وما نخاف أن يُكشف من أسرارنا الحميمة.

وُلدت نفيسي في أسرةٍ إيرانية ضليعةٍ بالشأن العام. كبرت مع حكايات يرويها لها والدها قبل النوم أو في مشاوير الصباح، تستحضرها ذاكرته من كتاب «الشاهنامه» (كتاب الملوك) للشاعر الملحمي الفردوسي، الذي كتب حكايةً أسطورية عن إيران منذ خلق العالم، وحتى ألف سنةٍ خلت. «كان هدف الفردوسي أن يضرم اعتزاز مواطني بلاده بماضيهم العريق قبل الغزو العربي لها في القرن السابع الميلادي، تلك الهزيمة المهينة التي أشهرت نهاية الإمبراطورية الفارسية الموغلة في القدم وتبدل ديننا من الزرادشتية إلى الإسلام».

يبدو أن العرب في نظر الفرس برابرة، وأن الفرس لن يغفروا لمن استباح بلادهم عقب معركة القادسية، ولن يعينهم أن يتذكروا عدالة الخليفة عمر بن الخطاب، بقدر ما يهتمهم ألا ينسوا أنه أمرٌ بإتلاف كتب التراث الفارسي من غير أن يسأل هذا الشعب عمّا قد يحب أو يقدّس، لأنه، برأي الخليفة عمر: «لن يحتاج الفرس سوى القرآن دليلاً لحياتهم

الجديدة بعد اعتناقهم الإسلام». وعليهم أن يهجروا الشاهنامة التي فيها مثلاً: نصيحة الملك سام لابنه زال: «تمتّع بالحياة وكن كريماً. ابحث عن المعرفة، وكن عادلاً». تذكر الكاتبة صوت والدها أحمد نفيسي، الرجل المسلم: «لسبب واحد علينا أن نؤمن بالله هو وجود أشعار من مثل أشعار جلال الدين الرومي أو أبي القاسم الفردوسي».

تعود أسرة والدتها إلى سلالة القاجار التي حكمت بلاد فارس (1794-1925). لكن نفيسي ولدت في منتصف القرن العشرين، ونشأت في خضمّ عهد البهلويين (1925-1979)، وشاركت في الثورة ضد حكم الشاه، وخاب أملها لما آلت إليه البلاد بعد هذي الثورة: «إنه اختلافٌ غريب بين أن تعيش لحظةً تاريخية، وأن تفكر ملياً في نتائجها. كان أبي أخبرني أن تاريخ بلدنا مليءٌ بالحروب والفتوحات، لكننا بعد ثورة 1979 واجهنا أسوأ الفاتحين قاطبةً لأنهم كانوا أعداء من الداخل!».

كانت نفيسي صغيرة السن أيام ثورة 1962 التي تسميها: (تمرينٌ من أجل ثورة). كان الشباب الإيراني بدأ يتفاعل مع العالم الخارجي علمياً وثقافياً، يقرأ (برتراند راسل)، و(جان بول سارتر)، والفكر الماركسي. برزت التيارات الفكرية الأقرب إلى العلمانية في نهاية الخمسينيات، وقبل أن يستبدّ حكم الشاه محمد رضا وتقوم ثورة 1962 المطالبة بتغيير دستوري يضمن حقوق المرأة بالانتخاب، وحقوق الأقليات بعصوية المجلس التشريعي، وضمان الحقوق الثقافية للجميع. عن تلك الفترة تكتب آذر: «كان مدهشاً كيف سيطرت الطرائق العلمانية المعاصرة بسرعة على مجتمعٍ هيمن عليه بشدّة الدين التقليدي والدكتاتورية السياسية. تفاقم الهيجان الشعبي عام 1963 واستمر حتى 1979 (تاريخ

انتصار الثورة الإسلامية). كان صراعاً دموياً عنيفاً قسّم إيران سياسياً وثقافياً وإيديولوجياً، حدّ أنه كان صراعاً وجودياً. والحق أن السعي نحو التحديث كان قبل البهلويين وسيستمر بعدهم. وقبل الشاه وبعده كان المجتمع الإيراني متقدماً جداً على زعمائه. وكان البارزون في المشهد الثقافي والاجتماعي هم المستهدفين من قبل النظام. وظلّ والدي مؤمناً أن التحوّل السياسي السليم والسلمي لن يأتي إلا من اتحاد ومشاركة القوى الدينية التقدمية والقوى العلمانية، وإلا فلن يكون.

في عهد الشاه كانت منظمة الاستخبارات الإيرانية (سافاك) مرعبة. «كان يتم التعامل مع المعارضة السياسية باعتبارها شكلاً من أشكال الجريمة: يحاكم غالبية المذنبين بتهم كاذبة، وهناك حيز صغير للدفاع عنهم». وهو ما تكرر بطرق كثيرة بعد الثورة. «الدرس الأول في السياسة الإيرانية والحياة العامة: الحقيقة لها أهمية قليلة جداً». «لم تكن الحكومة نزيهةً على الإطلاق مع شعبها، كانوا يبقون الأخبار الحقيقية في طيّ الكتمان، وتحلّ الشائعات محلّ الحقائق».

يكتب والدها في يومياته، حين احتشد عدد غفير من أهالي طهران للتبرع بدفع كفالة له ليخرج من السجن الذي استبقاه أربع سنواتٍ بتهم ملفقة في عهد الشاه (برّئ منها لاحقاً): «لم أكن أعتقد أن سكان طهران طيّون إلى هذه الدرجة. هذه الأمة غاية في الغرابة؛ تشاهد الاستبداد في صمت، وفجأة تبرهن على إرادتها - حقيقة وجودها - عبر المقاومة المنفعلة».

وتسترسل نفيسي: العلمانيون هم الذين بدؤوا ثورة 1979، ثم استولى عليها الإسلاميون. والخميني الذي كان متخفياً في كربلاء إبان حكم الشاه، وطُرد منها عام 1978 (في محاولة من العراق لتحسين

علاقاته مع إيران)، واستمر في لفت الانتباه عالمياً بسبب رسالته الثورية ضد النظام الملكي الحاكم، وتقديم نفسه على أنه الرجل الإلهي الذي يدير ظهره للعالم، بينما كان في حقيقة الأمر يتآمر ويخطط للسيطرة عليه، ويسحر أنصاره الذين كانت أعدادهم تربو على الملايين. أطلق الخميني على أمريكا اسم: «الشیطان الأكبر»، وحاربها وحارب خدمها الخنوعين، ثم تحول ضد مؤيديه من العلمانيين والإسلاميين معاً، بعد إعلان المجلس العسكري الأعلى انتصار الثورة الإسلامية. حوربت الأقليات وأجبرت على أن تكتب (أقلية دينية) على لافتات محلاتها، وأذت الثورة المؤمنين بطريقة جوهرية أكثر مما أذت الكفار، وتبددت أواصر المحبة بين الإخوة وأبناء العمومة، وتكرس القمع والإعدامات لمجرد الشبهة. التزم الناس منازلهم. لا مقاهي، لا مطاعم، عداوة بين الأهل، انهيارات على مستوى الأسر، شقاق عائلي، انفصال بين الأزواج الذين كانوا يؤجلون خصوماتهم لعقود، ثم أنجزوها بعد انهيار النظام الاجتماعي القديم، وتفاقت الهجرات بعد الحرب أكثر منها في أثنائها.

ثم، بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية (1980 - 1988)، وانكشاف فشل الثورة في جلب الازدهار إلى إيران أو تصدير النظام الإسلامي إلى العراق، وتسببها في خسارة نحو مليون إنسان ما بين قتيل ومفقود وجريح، شعر الثوريون القدماء (الإسلاميون) بأنهم خُدعوا وبدؤوا يطلبون دعم العلمانيين ومساندتهم. أي أن ما تجنبوه بالأمس راحوا يتحولون إليه اليوم. وبعد توقيع معاهدة السلم وإعلان انتهاء الحرب: «لم يفارقنا الخوف. كان يبدو أن هناك شيئاً ما خادعاً في إحساسنا بالأمان، كأن السكون الذي جاء به السلم يحمل الصدمة القوية نفسها كالقنبلة. كأن حياتنا تغيرت، لا بسبب الكارثة والأشلاء، بل أيضاً

بسبب شتى أنواع العنف الذي كان معظمه عنفاً غير ملموس، كان كالدود يلتهم حيواتنا اليومية الطبيعية».

وفي التسعينيات، وجنباً إلى جنب مع الانفتاح السياسي، استمرت المضايقات للعلمانيين والمثقفين والكتاب والشعراء والمترجمين، كثيرون منهم قُتلوا في أثناء ذهابهم إلى عملهم أو في السوق أو الزيارة، وبدأ الارتداد إلى الرموز الزردشتية. «ومع ذلك أشكر الجمهورية الإسلامية في طهران لأنها عندما حرمتنا من مسرات الخيال ومن الحب ومن الثقافة، جعلتنا نتجه إليها كلها».

أما سيرة الأسرة الشخصية، فتبدأ من العلاقة مع الأم التي أغلقت أقفال قلبها بعد وفاة زوجها الأول «سيفي» بعد عرسهما بستين إثر التهاب الكلية القاتل، وكأن زوجها الثاني من أحمد نفيسي، والد ابنها آذر ومحمد، الذي استغرق حياتها الفعلية؛ كأنه لم يخترق سياج عقلها الساعي نحو المثاليات: (أسرة مثالية، صديقات مثاليات)، الأمر الذي لم تتقبله ابنتها آذر، واعتبرته «نزوعاً عقلياً شمولياً»، لم تنفع معه محاولاتها في الانسجام مع والدتها التي كانت قانعة بكمالها وصدقها واستقامتها، في حين كان كل من حولها يكذبون عليها، وبضمنهم زوجها وولداها. مالت آذر كلياً إلى والدها الذي قضى عمره يبحث عن الحب، ولم تجزم ابنته، سواء من خلال يومياته التي كتبها، أو من خلال أحاديثهما، بما إن كان حصل عليه حقاً أم لا. وخلال رفقته والتعلق الشديد به تعلمت منه كيف يمكن أن تكون الرغبة في الاستحسان والتقدير والدفء رغبةً مميتة!

لم تكتب آذر إلا القليل عن حياة أسرتها الصغيرة. عاشت زواجاً أوّل مرتجلاً وسريعاً في أثناء وجود والدها في السجن، لم يدم سوى

ستين تعيستين. ثم زواجها المستمر الثاني من بيجان المهندس (البهائي)، ولم تكمل رسم العلاقة بينها وبين زوجها أو ولديها كما أنقنتها بخصوص أبويها. كلاهما ظلاً محفورين في رأسها كحاضر مستمر، كسيرة ذاتية مستمرة، لا كماضٍ يراودها من حينٍ إلى حين، حتى بعد أن ودعتهما في إيران، منفصلين، وهاجرت للاستقرار نهائياً في أمريكا قبل موتهما بسنوات، كان عليها خلالها أن تباشر سيرتها المستقلة. تلك بقيت الفكرة الناقصة. ربما يلزمها وقت ليتمكنها استكمالها في كتاب آخر، هذا إذا كان فيها ما يفيد!

د. آذر نفيسي تقيم الآن في أمريكا، ولا يزال القسط الأكبر من روحها هائماً في أرض إيران، ولا تزال تقرأ الأدب القصصي الإيراني، وتحاضر فيه، وتكتب عنه، وعما يشدها من الأدب العالمي، وتكرس قراءاتها ومقالاتها للبحث عن فهم حقيقي للوقائع السياسية. الكتاب بمجمله أدب مشوّق، وجميل، وصادق، ومقنع. ترى كم نستطيع أن نكون موضوعيين في الحكم على من نحب، وعلى من نكره، سواء أكانوا أشخاصاً أم دولاً؟!

أسلمتني د. آذر - كقارئةٍ عربية - لأن أرى صورتني في عيون الآخرين الذين ينظرون إلى انتمائي بوصفه حاملاً عداوة شخصية لانتمائهم. كيف لي أن أخبرها أنها أخرجتني من موروثي الذي أنشأني على أن أنظر إلى إيران كبلدٍ عدوّ؟! وأنها نجحت في كسب مودتي، بل محبتي، وتوقي لأن أحمل عنها قسطاً من عذابها وهي ترى بلدها المحبوب يتردّي من هضبات الحرية إلى مضائق الدين بعد (ثورته الإسلامية). أستطيع الجزم إنّه خطرُ الثقافة ودورها في آن واحد! والناس يتشابهون كما تتشابه مصائر الدول. ترى لو أسقطنا

سير هذا العصف الذي كابدته إيران، وتأملنا النفق الذي يعتم أرض سوريا وسماها اليوم: أليست إرادة الناس في العيش الكريم هي ما يحركهم على اختلاف انتماءاتهم؟! أليست المؤامرات التي تحيكها الديكتاتوريات ضد شعوبها مستنسخة عن بعضها كصورة طبق الأصل للإيقاع بشعوبها، وبالفتنة بينهم وبين الآخرين؟!

11 أيار 2015

12. إلى رائد وحش

هي البانوراما هكذا في كتابك «قطعة ناقصة في سماء دمشق»، ليست القطعةُ الناقصةُ بالضرورة من صنع الحرب؛ «وإلا لكانت السماء كلها اختفت بعد الحرب العالمية الثانية». تظنها يا رائد وحش أنها أنت؛ أو ربما هي حصتك الناقصة من السماء، أو ربما: «غياب الحبيبة هو النقصان الأكيد»؛ تلك الحبيبة «التي لا تقوى عليها العيون إلا مغمضة، ولا تأتي إلا في المنام!»، وهي التي «لم تنجز معها ماضياً بل وعود غد!». ولأنها امرأة الغد، ستتسلح يا رائد بقنديل كازٍ وتعبّر نفق الحياة التي تحولت إلى بسطة؛ «بسطة كتابة. هذا ما أفعله الآن فمن يشتري كل هذا الألم؟!».

لعلنا نحن القارئ، سُراءَ الألم، مكابدي النقصان الذي يجتاحنا في وحشة جماعية، نكتشف ونحن نقرأ أننا نحياها فرادى! وقد تكون القطعة الناقصة فقدان البوصلة الداخلية والخارجية وغبش الرؤية وتشوش علاقة الإنسان بذاته وبإلهه وبمحيطه البشري والاجتماعي تحت هذي السماء التي ترى نقصانها بقلبك قبل عينيك، وتبحث عن تفسير لها بين هؤلاء الذين يسرد كتابك حيواتهم في مسبحة حكاية ساحرة في جمالها وكثافة حكاياتها وكوميديا الألم النابض فيها.

تكرّ حَبّات الحكاية تحت نور قنديل الكاز. قنديلٌ للنور وللدفء الذي ربما سيأتي لاحقاً «من حطب الكتب، من مكتبة البيت التي تكفي لشتاءين على الأقل».

لم تنتقِ يا رائد أبطالك كلهم ممّن «دقّوا جدران الخزّان»، (ما لم يفعله شخص غسان كنفاني)، وصرخوا على امتداد الأرض والبحر، ومع ذلك لم يهَبَّ لنجدتهم أحد. انتقيتهم من أهلك وصحبك أبناء المخيم الذي امتهن تجارة غير مسبوقه هي «استيراد الأسي» وتساقى المرارة وإنفاق العمر في الحروب وفي انتظار الحروب التي لم تقع.

ولم تجتهد لتصوغ من نفسك بطلاً، وفي الوقت ذاته لم تكن لا غائباً، ولا مغيباً. فأنت ابن العائلة التي: «كلها نبتت من الدموع، وإلا لم للعائلة عيونٌ تو مض بحزن عصبي على التفسير؟» وأنت الطفل الذي تمتلئ مخيلته الطفولية بالغولة العمياء التي يسمونها الحرب، الحرب التي ستكرهها (لأنها، حين سنأتي، ستطعمك الخبز اليابس) وستكبر وستحبّ صانعي الشاي في الدوائر الحكومية لأن رأس عائلتك واحدٌ منهم، ولن تلتحق بالخدمة الإلزامية التي كنتَ مطلوباً إليها منذ عشر سنين. وحين تقوم الثورة ستندّر على نفسك: «أنا منشق قبل الثورة»، لأنك زغتَ عن درب «الجيش التي تحمي العروش»، وفي أثناء تخفيك لم تجد ما تفعله سوى تأييد ليالي العتمة والخوف بالكتابة وبالأسئلة: «لماذا الأعمار من الطفولة إلى الكهولة خوفٌ أعمى باستثناء مرحلة (مروان حسن) الشجاعة؟! مروان هذا هو الاسم المكتوب على الهوية المدنية التي ظل رائد يتنقل بها إلى أن يهرّبه رقيبٌ من الجيش النظامي إلى الحدود اللبنانية.

في تداعيات المسبحة الحكائية التي مسرحها مخيم «خان الشيخ»

القريب من دمشق، تحضر أيام النكبة الأولى والبيوت التي لن تنتظر أصحابها (كما دأبوا على أن يأمّلوا) بعد نزوحهم الأول من فلسطين إلى الجولان، والثاني إثر نكسة 67، إلى مخيم خان الشيخ الذي نصب منه الشيخ ونضبت من حوله مياه النهر الأعوج، ثم اجتياح بيروت، وهجرة الفلسطينيين منها إلى شتاتٍ جديد، بعدها حرب الخليج، وإعلان الميجر، ضيف المضافة المفتوحة أبداً في ليالي المخيم: «يا جماعة اللعنة التي أصابتنا ستصيب العرب، ثم تصيب العالم. هذا العالم سيدوق طعم لعنة فلسطين». وهو ما حصل بداية بالغزو الأمريكي للعراق، وصولاً إلى زلزال سوريا...

أحداثٌ تتناقلها البنات مشافهةً عبر وقوفهنّ على أسطح بيوتهنّ، بدقّة وتفصيلٍ وموضوعية لا كما يفعل الإعلام العالميّ الرديء. ورواياتٌ يتداخل فيها الماضي بالحاضر في سهرات مضافة العائلة كحكاية «أبو طارق» الذي لم يكن يحترس ويشفر كلامه، لأنه لا يخاف الجيش والمخابرات، إلى أن انتهى جثة مجهولة، و«جمعة» المجند على الحاجز، الذي يحب الرئيس ولن يخلع بذلته العسكرية إلا بعد أن يطمئن أن الرئيس لم يعد في خطر، وحين يمرّ على الحاجز مسؤول كبير يطلب منه أن يُبلغ الرئيس: «أخبر الرئيس أن جمعة لم يستحمّ منذ شهرين». وحكاية الرجل الحموي الذي كان في العاشرة من عمره حين حدثت المجزرة الشهيرة في المدينة. يومها اختبأ في قبو إحدى البنايات بين تلة جشّ حديثة الذبح، وغاصت قدماه في الدم. وعلى الرغم من خوفه الحيواني اشتّم عطر امرأة كانت مقتولةً قربه، لم ير جثتها، لكن عطرها النسائيّ أنقذه من خوفه واختبأ حتى نجا. الرجل الحمويّ لم يحسب حساباً أن تلك الرائحة التي أنقذته في الطفولة ستعود ثانيةً، لكن من مكان ما في أعماق ذاكرته الشميّة لتنقذه من التعذيب، وبسببها

سيبتسم بينما جلادوه يلهثون، وسيشعر بحرارة حارقة في عز الشتاء حين يصلبونه في فناء ممطرٍ، بينما هم في الفرو والصوف. وحكاية «مسوس» أو موسى المجنون الذي كان يبيع قناني العرق الفارغة ويشترى جنة البقرة الضاحكة، إيماناً منه بأنها ستجعله يضحك، وحين نضب حليب زوجته، وعرف أن جارتهم بثينة كذبت بادّعائها أن ثديها أيضاً نضب، بينما خدّا ابنها متوردان ومنفوخان كخديّ الدبّ. خذلان الجارة جعل مسوس يسقي ابنته حليب بقر، فماتت، وجرّ مسوس حين أفاق على نفسه أباً قاتلاً وزوجاً مهجوراً.

وحكاية أذان الصبح الذي اعتاد العلمانيون والمثقفون على الاستياء منه لتطفله على هدوء ليلهم، وصار في ليل الحروب أنساً لأرقهم ومنبهاً لضبط الوقت، وأملاً قد يُذكر المدفعية الحقودة أن اسم الله أكبر، فتكفّ عن سعيها.

وحكاية الأشجار قرابين الحروب، تتعرّض للتجزير كالبشر، كالحيوانات. والكائنات الحية صارت أسرة واحدة من جديد، بعد عصر من تفكك أسرة الكائنات. وتساوى الناس في البرد وأكل البطاطا بعد أن كانت فرقّتهم إمكاناتهم المادية.

والنوم: «في زمن الحرب عرفتُ أن النوم أصعب ما يكون». النوم كوايسسُ مدكوكةٌ بالدم والحواجز والسلاح، إلا أنها تظل قاصرةً عن بلاغة الواقع «الكابوس الذي يصير وحده هو الحقيقة، فيما الحياة مجرد فواصل من الفهم».

كم تحتفي يا رائد بالحب في كتابك: «لماذا نكون مستعدين استعداداً تاماً للموت حين نحب؟» (الموت مطلق الحياة)! وكم يُشتهى الحب في الحرب، ويصير مختلفاً: «تمرّ دلال ولا تلقي التحية فيسأل

القلب: ما المرأة؟!»، ويقول عابراً على الطريق: «ما أجمل ربطة الخبز التي تحملها! دلال التي يمتزج هواها البعيد المنال بتمجيد النعمة الشهية والشحيحة، دلال الممرضة والأمومة المجانية لخمسة أطفال ومعشوقة شباب الحارة المنشغلين بمرورها وتهادي رديها أكثر من انشغالهم بالدبابة في رأس الشارع. «يتمنى أحدهم أن تقصفه برموشها أو بحلمتيها، وأشتهي أن أبكي في حضنها لأي سببٍ تافهٍ غير الحرب». وكم تحتفي يارائد بالأنوثة! «الحياة في جدارية الوعي الكبيرة امرأة تتزاحم فيها الأمومة والخصب، السماوي والأرضي يتحدان معاً في جسدها الذاهب ليكون سيرة جماعية لأحلامنا. تأتي الأنثى من رحمها حاملة رسالة فتعلمنا، ويأتي الذكر أمياً فنعلمه. ومع ذلك تحتفظ البنات بروح الثورة كامنة، ولا يقلن براكينهن إلا لمن يفهم لغة البركان».

وكم تحتفي بالأم التي ستخبئ أبناءها في الملجأ أيام حرب الخليج، وتطلب من المهندس أن يحسب لها: كم يكفيهم هواء الملجأ للاختباء وعدم الموت اختناقاً؟! هذه المرأة ذات الستة والعشرين عاماً، والأم لنصف دزينة أولاد، تبدأ النط على الحبل، تقول إنها تريد استعادة لياقتها بينما تبغي إنقاص وزنها للتقليل من استهلاك الهواء في الملجأ - بيت الدرج! «تحصينات أمي الوحيدة للحرب القادمة هي أحزانها التي راكمتها الحروب التي لم تقع!» وتطلب من ابنها البكر أن يتزوج، ويتهرّب «ليس وقته فالناس تموت يا أمي»، فترد: «هذا وقته كي لا يموت الناس».

وكم تورد في كتابك خواطر وفلسفاتٍ ولدتها الحرب خارج سياق الموروث الشعبي المسلم به؛ فقد كان مألوفاً أن: (البيت أول ما يشتري وآخر ما يباع)، وعبر الحروب نكتشف أنه «مكتوب علينا أن نبني بيوتاً

لن نسكنها» وأنه ليس علينا أن نبنّي ما سيعمره الغيابُ حين سنبنّي نحن للمجهول، وأنا: «لم نكن لنقتنع بأقل من حربٍ بأن القبر هو البيت الحقيقي والباقي محطات ليس إلا».

وكنا نتغنّى: «اغترب تتجدّد»، واكتشفنا أنه: «ما من رغبة سياحية لدى اللاجئيين» منذ نزح العراقيون بعد الغزو الأمريكيّ إلى سوريا العامرة وعزفوا عن التجوال فيها، إلى نزوح السوريين من سورياّ المدمّرة إلى كل القارّات وانشغالهم بالفقد والأسى عن السياحة فيها. فلسطينيٌّ أنت يا رائد، آنتَ سوريا بالولادة والنشأة والحب الموصول، وحرصت على نقاوة الدم الفلسطيني في عروقك، وعلى عذوبة الهاجس الإنساني حين كتبتَ عن الإنسان أيّاً كانت جنسيته، وفي هذا المعنى أنت سوري بقدر ما نحن فلسطينيون.

لماذا كل هؤلاء الذين يعضون القلب حين نقرأ لهم ما كتبوا؛ لماذا كلهم الآن بعيدون عن البلاد؟!

فلسطينيون وسوريون؛ ترحلون ولا تتركون الخيول خيولاً، ولا تتركون البيوت بيوتاً.

22 تشرين الأول 2014

13. في بيتي رجال

في بيتي رجالٌ أعادوا إلى البال رواية إحصان عبد القدوس: «في بيتنا رجل».

هناك، في الرواية، يهرب الشاب الثائر من مطاردة العسكر، ويختبئ في غرفة المراهقة الغريرة، وتقع في غرامه، ولا تعود حياتها بعده إلى غفوتها قبله.

وهنا، «في شقتنا رجال»: نجارٌ وبلاطٌ ودهانٌ وسباكٌ وكهربجيّ، جمعتهم المصادفة لترميم ما تهالك من كسائها، وإلى حينه كان لا بدّ لحياة أهل البيت من أن تتعطلّ.

قبلهم لم يكن باب الشقة يألف الضجيج، ولا يدقّ جرسه الكسول إلا بمواعيد مبرمجة. وبوصولهم حاد عن سكة سكونه، وأصبح معبراً مشرعاً للدخل والخارج كل على هواه.

استباحوا المكان بعفوية ورواق، وانهمكوا في أشغالهم بسرعة لافتة. داسوا على الفرشات بأحذيتهم، وبما علق عليها من التراب وغبار الطريق. نثروا أدواتهم وآلياتهم في كل شبرٍ من البيت. جالت عيونهم بغير حياء، بل بفضولٍ واثق، على منمنمات الغرف والمطبخ والحمام. خطفوا المناشف الوديعة، واللوحات المسالمة، على عجل،

من علاقاتها على الجدار، ورموها مذعورةً على الأرض كيفما اتفق، قرب المخدّات أو الطناجر أو الملابس، فتراكمت، كلها، مرضوضةً في شتاتها كأرتالٍ رماها النزوح في أرضٍ مبهمة.

كان على العمّال قبل إنجاز الترميم أن يكملوا الخراب الذي استفحل. باشروا الهدم والحفّ والتقشير وقلع البلاط. آلفهم العمل فتصادقوا، وانعقدت طقوس قهوتهم وشايهم وطعامهم وفاكهتهم، تصحبها أحاديثهم حول انقطاع الكهرباء والغلاء والخطف وداعش والجيش الباسل.

وعلى التوازي، تغبّشت ملامح أشياءي تحت أكوام الغبار، تأخت الكتب والمزهريات والصحون والألعاب واللوحات والنثريات التي يحمل كلُّ منها ذكرى صديقٍ لا يزال صديقاً، أو رحل أو مات أو فرقّتنا ضفاف الرأي.

تبعثر كلُّ شيء: البيت والوقت والأعصاب والخصوصية والفضاء المحيط...

كنت نويتُ أن آخذ إجازةً من عملي، وأتفرّغ للاهتمام بالبيت والعمال حتى انتهاء الورشة، إلا أنهم ارتأوا الاستغناء عن خدماتي بعد أيامٍ قليلة. استدّلوا إلى أماكن الأشياء وبدؤوا يحضّرون شايبهم متى رغبوا دون انتظارٍ لمواعيد ضيافتي. ولم يعودوا يستأذنونني بأدب، كما في أيامهم الأولى، في أي طلب. افتقدتُ معرفةً خشبيةً أثريّةً كنتُ اشتريتها من شارع القرباط في موسكو، ورأفتُ برسومها الفنيّة خلال عقدين من استخدامها، فأيتها الآن تدور في سطل الدهان كعصاً دائخة. كذلك مناشف الحمّام والمطبخ غدتُ مماسح تحت الأقدام والسطول والفرشايات والمطارق...

مع الوقت، بدأت نزاعاتٌ خفيفةٌ تنشب بينهم. يريد السبّاك مثلاً أن يستفرد بالمطبخ لتسليك مواسير الماء، فيطلب من الدهّان الذي يطلي السطح أن يخرج من المطبخ لدقائق، وتمتدّ الدقائق لساعتين، بذريعة أن العطب أعظم مما كان يتوقّع.

قلتُ لنفسي سأقرأ كثيراً في هذا الوقت المبتور من حياتي. لكنّ التركيز فارقتي. تشابكت الحروف والصفحات وتركتني أحدق فيها ببلاهةٍ كأنها رسومٌ أعجمية. أنهض عن الكتاب لألاحق الغبار والأوساخ التي نبتت كالفطر بعد نوبة الرعد. يستفرد بي العطاس بسبب ذرات النشارة، وينهكني الصداع من روائح زيت النفط والورنيش والخلائط الكيميائية، إلى أن صار عليّ أن أبات خارج البيت.

وأيضاً عزّيت نفسي أن: «ربّ ضارّةٍ نافعة».. فالنوم عند صديقاتي سيعيد إلينا أحاديث الليل والبوح الحميم الذي حالت بيننا وبينه عسرات الحياة، وهلّت الأحاديث ولم أعد أنام. طفا تعبُ جسدي، وثقلت حركتي. وأخيراً تعطلّ عقلي.

تلك الفداحة... جميع أفكارني التي خزّنتها في الوعي عن معنى الحياة المبتورة، والتي استعرتُ تفاصيلها من معاشتي لتجارب الآخرين أو من رواياتهم الشفهية أو عبر القراءات، بدتُ ضئيلةً حيال حقيقة الحياة المبتورة... فعن غير قصدٍ، استوطن هؤلاء الرجال نظام يومي، وجروني إلى عالمهم الخفيف والمتمهّل والنقيض لعالمي، حتى أنهم تطوّعوا لنصحي: «لماذا التعصيب والنرفزة؟ روقي يا مدام ما في شي بالحياة بيستاهل... تقضين النهار في التنظيف بينما ستعود الأوساخ غداً... أنت تعيقين عملنا... ارتاحي وأريحينا...».

جرّبتُ أن أرتاح. أرقب الدهّان مثلاً كيف يأخذ نفساً عميقاً من

دخان «الحمراء»، ثم ييسمل قبل أن يمزج الخلطة بنعومة كأنها أحلامٌ ملوّنة، وكيف يجلس بأناقةٍ إلى الغداء، ويمضغ لقمته ببطءٍ ورضا، لا يتطلّب ولا يعترض على أي طعامٍ يقدّم إليه. قال لزوجي: «لا أريد عربوناً... فقط عدني أنك ستنتقديّ أجري كاملاً حين أنتهي، فقد وعدت زوجتي بخزانةٍ ولا أريد أن أخلف وعدي». يقول، ثم يقطع كلامه للحظاتٍ إلى أن تنتهي رشقة القصف على ريف درعا القريب، فيتابع: «من هنا من طابقتكم العالي الصوت مسموع أكثر مما في بيتنا»، ويعود إلى عمله كأنه لم يسمع صوت البارود، ثم يلتفت إليّ: «أنت تشغلين نفسك كثيراً يا مدام»... «وأنت بماذا تشغل نفسك؟»... «أنا؟! لا شيء. أنا أدهن. أنشغل بالدهان. أعود متأخراً إلى البيت، أعشى، وألعب مع أطفالي، ثم أنام».

أرقب صبيّ النجار، ذلك الجنيّ الصغير الذي استغلّ انشغالي وتجوّل في جميع غرف البيت. استدعى رفيقه وتلصصا معاً على صورة البنت العارية في غرفة النوم، وقفوا على الشباك وتناوبا على تدخين السيجارة، بينما لم تحدّ أعينهما عن بنت الجيران على الشرفة قبالة بيتنا.. يا الله؛ كيف لم أنتبه إلى جمال جارتنا الصغيرة قبل اليوم! رفاقي الطارئون هؤلاء أعادوا تربيتي. هدوني إلى مُتعة الرواق ومتعة البطء ومتعة الكسل.

لم أخطّ حرفاً واحداً خلال استيطانهم. انعصرت الحروف في رأسي ولم تولد، غارت، صاحت بي من قاعها الدائم الفوران: «كفّي قليلاً، هيبني الوقت وروحي عني إليهم، فهؤلاء هم الحياة التي تدّعين أنك تكتبين عنها...».

29 آب 2015

14. قلمُ أزرق

بالقلم الأزرق الذي عثر عليه في الطريق، يُنفق الصغير وقته الكثير في الرسم على كرتونية صغيرة خشنة مستطيلة الشكل. يرسم مربعاً يشغل نصفها الأعلى، وتحتة دوائر صغيرة متناسقة. وبينما هو يلون حواف دوائره بالأزرق الوحيد، يكون خياله يقتفي ألواناً لا تحصى لتلك الأجهزة البديعة التي رآها في أيادي العابرين.

هم يعبرون، وهي تبقى لتشاغب في رأسه الصغير. يجول خياله بينها، ويملاً دوائره الملونة على واجهة كرتونه بنسخة طبق الأصل من الرموز والأرقام على واجهاتها.

بأناة، لا تشبه نرق الصبيان، يدير ظهره لأمه المشغولة بإرضاع صغيرتها وبإلهاء باقي الصغيرات عن الشغب، ويبدأ يثقب المربع والدوائر بإبرة سيرنك تحتفظ بها أمه كإرث اخترق أوردة زوجها بحنان في أيامه الأخيرة، محاولاً، عبثاً، أن يبقيه حياً.

الآن، ومن حافة موبايله الذي اكتمل يعلّق الصغير خيطاً مزدوجاً يسري به إلى الجدار حيث يفصل نهايته ليدخلهما ضمن هيكل كان صممه مطابقاً لشكل الإبريز، وألصقه على الجدار. يجلس منتظراً أن يكتمل شحن الموبايل التام الأوصاف، وأن تأتي أمه بالعشاء.

تأخر العشاء كثيراً. في الحقيقة لن يأتي العشاء، سيكون الليل حلّ منذ زمن، ولن تأتي الكهرباء أيضاً، ولن تكفّ أخته الصغيرة عن البكاء، ولن يشغله بكاؤها عن خطف الولاة من على الرف الفارغ في (البيت) الفارغ إلا من فرشاتٍ ممدودةٍ بوهنٍ على الأرض، وبطانية رقيقة سيندس الصغير تحتها، وسيشغل الضوء (الليزري) في ذيل الولاة، ويمرر موبايله في ذهابٍ وإيابٍ فوق حزمة ضوءها الأزرق.

حين يتماوج الضوء من بين الثقوب، يقرأ اسم رفيقه وسط إطار المربع. رفيقه في بيته القديم في المخيم يتصل به، وعليه أن يجيب. يفتح الخطّ، كما كان والده يفعل، ويحكي مع رفيقه طويلاً، كما كانا يتحدّثان في الحارة القديمة قبل تلك القديفة، ويتفقان أن يلتقيا غداً ليأكلا معاً سندويش مرتديلا طلياني، مع علبة كولا تنك، بعدها الشيبس والبوظة، واللعب بالمراجيح...

سينام على هدهدة المرجوحة، وعيناه تحاولان رسم الرقائق الزهرية المنقطة بالأبيض، وفمه يمضغ طلاوة الدسم اللذيذ والساخن، وأذناه تترنمان بخشخشة فقاعات الكولا من فم العلبة التنك الأفخم من اللعب البلاستيكية.

تشرين الأول 2014

15. هامش للحياة في ملعب النار

منذ صارت بلدي ملعباً للنار، وبدأت أحيّاؤها الضعيفة تتهاوى، هجر السوريون عاداتهم الأليفة كلها. ضاجوا بين محاولات فهم ما يجري، وأشغال العيش، والتسمّر كل الوقت أمام شاشات التلفزيون يلهثون خلف (خبر عاجل) يسقيهم وعداً واثقاً، وينكفئون ساخطين حين تنجلي الغمامة العابرة، وبيان أنّ كل خيرٍ (موثوق) ليس بالضرورة موثوقاً، وأن الخلاص يتعد وينأى.

ومثلهم أنا أضعتُ عاداتي. صارت الأفكار ترتجّ في رأسي، ثم تصخب ولا تنضج ولا تكتمل ولا تنصاع للكتابة. ولم أعد أقرأ، لم أعد أستطيع! كان ذلك فطامي القسريّ عن عادةٍ عمرها من عمر وعيي. إنما لا فطام يرتجى لمدمنٍ على القراءة، ولا رجاء أن تمتلئ روحه بسواها. وإن هجرها في ظرفٍ قاهر، فهجرانه قصير. سيعود إليها مستغفراً ومعتذراً عن عافيته في غيابها.

وهكذا كان. عدتُ أستجير بها قبل أن يستبدّ الموات الذي يُطبخ لنا على نارٍ حارقة. عدتُ أرجوها عزاءً أو دواءً، أو حتى مرهماً يبرّد هذا الحرق الذي يطول ويمتدّ ويعمق.

وكان عليّ انتقاء ما سأقرأ. فكل محنةٍ تحمل في بطنها منافذ

لإضعافها بالحيلة عليها، بمناورتها بأضدادها. سآحاصر هذا الزخم من الموت بقراءاتٍ عن حياةٍ عادٍ إليها أصحابها من قاع اليأس. لن ينفع مثلاً أن أغرق في الروايات الحديثة الراكضة على إيقاع عصرنا المجنون، ولا كتب الوعظ ولا الأساطير التي يتقاتل الشك واليقين على متنها. لجأتُ إلى الملاحم الكثيفة التي سبق أن قرأتها، وما أزال أذكر الكثير من تفاصيل أحداثها ومصائر أبطالها المرسومة بتأملٍ وموضوعية، فلا تعظ ولا ترتجل ولا تثقل بالشحنات العاطفية. على العكس؛ تراها تفيض بالعبارات الإنشائية والبلاغة اللغوية التي لم تعد معاصرة بما يكفي، لكنها تمنحني الآن الاسترخاء الذي أحتاج.

كأنني كنتُ في لا وعيي أرجو حماية نفسي من رعبها من مصيرٍ غامض يتربص بنا كل يوم.

بدأتُ برعاية الخصوبة لـ (يوكيو ميشيما). هي رحلة راقئة في أرض اليابان منذ مطلع القرن العشرين حتى سبعينياته، مع (كيواكي)، بطل الرباعية الذي يتناسخ عبر أربع حيواتٍ قصيرة متوالية، يرافقه خلالها جميعاً رفيقه (هوندا) في حياةٍ واحدةٍ تمتدّ لثمانين عاماً. وعبر الصديقين يتمهّل (ميشيما) في سرد معارفه حول المعتقدات والمنمنمات والقناعات اليابانية الطريفة والفريدة، كيف يحيها إنسانُ اليابان ويتنصّر لها، يصوّر قداسة الإمبراطور في ذهنية شعبه، وقداسة جبل (فوجي)، كرمزٍ وجغرافيا وتاريخ وجدانيّ وعاطفيّ. يطيل السرد عن ربيع اليابان، وعن طقوس العيد حين يتفتّح زهر الكرز، وعن التطريزات البديعة على كيمونو نساء اليابان، الذرور البيضاء التي تفرشها هؤلاء النساء على الوجه، والتي لا بدّ منها قبل الخروج من البيت لعملٍ أو زيارةٍ أو لقاء غراميٍّ، مغامرات نساء اليابان في مخادعهن السرية، أدوارهنّ غير الاعتبارية في حياة البلد، والتي يلتفتن

عليها بصمتٍ وصبرٍ ومناوراتٍ لا تهدأ. وأيضاً عن التغيرات الضئيلة
والبطيئة على طباع هذا الشعب من جيلٍ إلى جيلٍ.

وعلى امتداد الرباعية التي تقارب ألفي صفحة، لم يخصّص
ميشيما للحدث الأكثر فجائيةً خلال هذا القرن: (حرب عالمية
قصمت ظهر اليابان، قبلتان نوويتان أحرقتا مدينتين وشوّهتا ذرية
الناجين من أبنائهما)، لم يخصّص لسنوات الحرب كلها سوى مقطع
صغير لا يتعدّى الصفحتين، حين عاد (هوندا) لبحث عن أهل صديقه
(كيواكي)، فلم يجد لا الدار ولا أهل الصديق. وجد عجوزاً تقعد على
حجر، تشير إلى ركام البيت وتقول: راحوا...

كأن ميشيما يتعمّد قضم هذه المرحلة، لا يرغب في أن يخوض
في ما كُتب عنه حتى الإفاضة. تراه يتجاهل المشاهد الجنائزية التي لن
تُمحى من ذاكرة اليابان بفعل الزمن، ويقفز عنها إلى يابان بعد الحرب:
(اليابان العائدة إلى الحياة مثل كيواكي) بلدٌ معافي يملأ مكانه في الكرة
الأرضية: نهوضٌ ومشاريع واستثمارات على أرضها، وبضمن ذلك
استثمارات الأميركيان الذين كانوا في أمسّ القريب أبغض الأعداء،
وصار من بينهم اليوم مستثمرٌ أمريكيّ هو أيضاً عاشقٌ مولّه بامرأة يابانية
تبادله هذا الحبّ. كأنّ ميشيما يريد القول: الحرب مضت، ونحن أبناء
اليوم.

أمضيت مع الرباعية قرابة شهر. ظلّ ميشيما خلاله يجلس إلى طاولة
مطبخي في النهار، ويخرج معي إلى شرفة بيتي نراقب معاً ورودها التي
كمنت تحت ندف الثلج، يعلمني كيف أتأملها تتجمد الآن، لكنها لا
تموت، تحمي جذورها بذكاءٍ وحرص. ويسهر الليل معي، يدفّني
حين ينفد الوقود، يوقد أفكاره في العتمة المطبقة، يطبّب على خدي
حين أنعس، يهدد لي ليتمكنني الغفو. أسير معه بأنة نملّة تدبّ على

سَفَحَ جَبَلٍ وَعَرٍ، وَصَوْلًا إِلَى بَيْتِهَا عَلَى قَمْتِهِ. أَتَشْرَبُ تَفْكِيرَهُ الْمَتَأَنِّيَ
وَالصَّابِرَ، أَعِيشْ مَتَعَةَ الدَّهْشَةِ فِي عِبَارَةِ صَغِيرَةٍ مِثْلَ: «بَيْنِي كُلَّ مَنْ مَلَاذِهِ
الصَّغِيرِ الْخَاصِ الَّذِي قَوَامُهُ الْوَعْيُ الذَّاتِي» أَوْ: «مَنْ قَبِحَ الْأَخْلَاقَ
الْإِعْتِقَادَ بِأَنَّ: آهَ، لَسْتُ مَعْرُضًا عَلَى الْإِطْلَاقِ لِإِقْتِرَافِ خَطِيئَةٍ!»!

كان ميشيما قد اختار أبهة الانتحار على طريقة السيوكو بعد فراغه
من كتابة رباعيته. نعم، سيتحتم على من كتب مثلها أن يكابد خواءً
هائلاً بعد ختامها، أن يجرع كل هذا الحزن حين لا يبقى من معنى لحياةٍ
أدّى حاملها الرسالة التي أراد. إذاً: سننهض نحن من موتنا؛ نحن لن
نبلغ مقام ميشيما، لكنّ لكلّ منا عملاً على قدر استطاعته!

بعد ميشيما كانت لي عودة إلى: «الجريمة والعقاب - دوستوفسكي». أقرؤها أيضاً بعينٍ جديدة. أجدني أتبع في سردها السلحفاتيّ هذه الأناة
في رسم حركات الأيادي واختلاجات الشفاه، والنقلات الدقيقة في
تقلّب المشاعر، إلى أن أغلق عينيّ أخيراً على الخاتمة التي لا تُنسى
عندما حُكِمَ على راسكولنيكوف بالسجن، وبكت سونيا من الفرح: يا
إلهي! سبع سنوات، سيسجن فقط سبع سنوات... كم هي قصيرة هذه
(السبع سنوات)!

وانتقلتُ إلى: «نورٌ في آب - وليم فوكنر» وحكاياته الغريبة عن
لقيطٍ لا يفعل شيئاً في حياته مما قد يدور في أذهاننا نحن - القراء
السادجين - وعن شخوصٍ لا يشبهوننا ولا يعينهم ما يعيننا، وعن
حضور حربٍ قديمةٍ بخلاصة كثيفة وشفافية: «وحين خسروا الحرب
وعاد الرجال الآخرون إلى بيوتهم، وعيونهم مرتدةٌ بعنادٍ نحو ما
رفضوا أن يصدّقوا أنه مات، تطلّع هو نحو الأمام، وحاول أن يستفيد
من الهزيمة بالممارسة العملية لما تعلّمه فيها».

حانيةً كانت هذه الكتب. جميعها أسرت لي أن في الحروب حياةً وادعةً قد لا تجود بها أزمته السلم، ولا تزال على طاولتي كتبٌ تصطفُ تنتظر دورها: أفكر في العودة إلى «الدون الهادئ - ميخائيل شولوخوف»، «تقرير إلى غريكو»، و«الإغواء الأخير للمسيح» ل: نيكوس كازانتزاكيس»، وكل ما كتب أمين المعلوف قبل (التائهون)، وأي روايةٍ للساحرين من أمريكا اللاتينية... قائمة طويلة مستعادة عسى الحرب تنتهي في بلدي قبل أن أكمل إعادة قراءتها.

21 حزيران 2014

16. جيلٌ جديدٌ يكبر في دمشق

تلك البطالة، وذلك الضياع والاكْتئاب واليأس الذي كان قبل أعوامٍ يخنق معظم شباب البلد، وبضمنهم المحصّنون منهم بشهاداتٍ علياً ونادرة في مختلف الاختصاصات؛ كل هذا لم يعد أكثر من مزحةٍ سمجةٍ حيال ما ينتظر شباب اليوم.

اليوم، على كل رصيف من شوارع دمشق العتيقة، وفي وضح النهار، ينام الأطفال مستغرقين. أطفالٌ مشرّدون، مجهولون لم يعودوا يثيرون استهجان العابرين سريعاً من فوق أجسادهم، أو فضولهم، أو اندفاعهم لتقديم عونٍ ما، أو حتى مجرد تساؤلٍ ضمّنيّ: هل هؤلاء الأطفال أحياءٌ يأخذون غفوةً هائلةً؛ أم هم موتى؛ ضحايا الإهمال أو الجوع أو التشرد أو المهانة أو الاستغلال أو التعنيف؟!

وفي وضح النهار يضيع بين شوارع دمشق مجانين. منهم هذا الفتى الجميل، والأقوي، والموهوب بلوثة الرسم، والذي كان نوى أن يتسجّل في كلية الفنون الجميلة قبل أن تقوم الثورة، والذي تظاهر مسالماً أول انطلاقتها، وصار يرسم على جدران الشام أطفالاً وطيوراً، ثم فرّ، بعد أن لاحقته فروع الأمن، ليتعسكر مع المقاتلين الإسلاميين الذين لن يُلحقوه بكتائبهم إلا بعد أن يشهر إسلامه. يعدونه بتحرير

الشام قريباً بإذن الله، وينهونه عن مزاوله الرسم المخالف للإسلام (الحنيف). ويدعن، فيحمل، بدل الريشة، كل أنواع السلاح المتوفر، ويطلق معهم الرصاص والقذائف باتجاه دمشق من شدة ضجره في الليل، ويهرب من النوم كي لا تقتله كوابيس الدم الطازج، وأخيراً يفّر من بينهم ويعود مختلّ العقل يذرع شوارع الشام ويهذي: (كل عناصر الجيش أهدافٌ لنا، كلهم بلا استثناء محوّلون إلى المحكمة الشرعية...)، ولا يخيفه الآن شيءٌ، لأنه، في خفة جنونه، لم يعد يدرك أنه صار مستهدفاً من الجيش ومن الإسلاميين.

ويحلّ الليل، ولا تقلّ وحشة شوارع دمشق العريقة، عن وحشة أهلها الأصيلين. هكذا، فجأةً، مع حلول الظلام، تختلّ هذه الرابطة الروحية الوطيدة بين المكان وساكنيه منذ أجيال. يسارعون إلى بتر أشغالهم وأمنياتهم، وينسربون من متاجر حاراتهم ومطاعمها ومقاهيها وأرصفتها الحاملة روائحهم وحكاياتهم، متفرّقين إلى أمان بيوتهم في حظر تجولٍ طوعيٍّ لم يفرضه عليهم قانونٌ ولا فرمان، إنما أوحث إليهم به عقولهم، لحفظ ماء وجوههم من إهانة، وحفظ ماء عيونهم من دمع لن يساوي كلفته العاطفية. قد يكسر حظر التجول هذا بعض رجالٍ مسرعين، يتلفتون حولهم بحذرٍ جليٍّ وخوفٍ خفيٍّ، ويزفرون بارتياح حين يعثرون على الخبز أو السجائر التي أجبرهم فقدانها على الخروج من بيوتهم إلى الشوارع التي صار يستبيحها ليلاً جيلاً جديداً.

جيلٌ جديدٌ أفرزه الحالُّ السوريُّ المريع، والمستعصي، والعصبيُّ على الفهم. جيلٌ هجينٌ وغريبٌ عن المكان وعن نفسه وعن بقايا أسرته وعن البشرية وعن حضارة القرن الحادي والعشرين. جيلٌ داهمته الحرب في أول البلوغ، فاختلطت في جسده هُرمونات النموِّ بهُرمونات الرعب المحيط، واختلطت في روحه الرغبة في الحب،

برغبة الفرار من خيالات الموت؛ فلا استطاع أن يستوعب كيف نجا من موتٍ اصطاد بيته وأسرتَه أو أحد أعمدتها، ولم يلحق أن يتعلّم كيف ينتظم العيش ما بين بيتٍ ومدرسةٍ وهواياتٍ أو أنشطة متنوعة خارج أوقات الحروب. وصار قدره أن يبتكر طريقة عيشه الفريدة في انفلاتها عن إرث التربية الأسرية أو المدرسية، وأن يؤثث، تحت رعاية الحرب، تجربته الحداثيّة، القائمة على اغتنام لحظة العيش الحاضرة إلى أقصاها من غير موروثةٍ محمولٍ أو دليلٍ حاضرٍ أو تفكّرٍ في ما سيأتي.

جيلٌ صار مجتمعاً متكاملًا، يترك غصّة السؤال كشوكة في الحلق: متى لحق أن يقيم منظومته الوطيدة هذه ويحيك قوانينها وعلاقاتها المتداخلة بكل هذا اليُسْر؟!

هذه البنت من وسط سوريا (عمرها 13 عاماً). اختفى أهلها كلهم تحت أنقاض بيتهم، وجُرحت بشظية في وجهها ولم تمت. كانت مُغمى عليها حين رحلتها الشاحنة الخيرية الفارّة بالناجين من القصف. أفاقت في بيتها الجديد في الحديقة العامة قرب شارع العابد وسط دمشق، وسط بشرٍ يتقاسمون المصير نفسه، على اختلاف منمنمات نكباتهم. ولا يزالون منذ عام أو أكثر يتخذون من الحديقة بيتاً ومن عشبها فرشاً ومن الإغاثة وأعطيات الكريمين طعاماً.

لم تفلح البنت في العودة إلى المدرسة التي انتزعت منها وهي في صفها الدراسي السابع. حملت ندبتها التي شوّهت وجهها، وراحت تعمل في محلّ للثياب والعمطور، وافتتن التاجر الختیار برمان صدرها النابت حديثاً، ورجا لنفسه نصيباً من طيبه الكثير. أهداها حجاباً لتحافظ على ستر شعرها، وأغراها براتبٍ أسبوعيٍّ أعلى من حلمها بالستر، وجزّب على جسدها الصغير كلّ (العمطور الجنسية، السرية)

بنكهاتها التي لا تحصى، من الفريز إلى الكرز إلى المشمش البلديّ إلى الورد الجوريّ إلى الياسمين إلى الزلّوع... واختبر بنفسه كيف تستيقظ بهلوانياته في خريفه البائس حين يُلبسها كيلوت السكر! كيلوتّ ليس من قطنٍ ولا دانتيل، مصنوعٌ من السكر المضاف إليه طعمٌ حلوةٌ ومثيرةٌ تبدأ بالذوبان حين يجول عليها لسان الختیار زاحفًا بين انحناءات حوضها النحيل المستسلم لشغف التجريب، والعاجز عن أن يكون شريكاً فعلياً في التجربة الغامضة.

لم يُغضب الختیار ربّه بمسّ عذرية الفتاة الطريّة، وفي كل جولةٍ يكافئها بوحدات للموبايل أو بوجبة شاورما أو علبة محارم نسائية أو جورب مطرّز. ويعلمها كيف تعرض البضاعة السرية في أدراج المحلّ على مجايلاتها من الصبايا الصغيرات، ويعلمها كيف تسوّق عطور الجنس و(لانجوري) السكر لرفيقاتها النازحات من كل الأمكنة إلى دمشق.

ذلك المتجر كان المدرسة التي احتضنتُ البنت من غير منافس تعليميٍّ آخر، وهناك أدركتُ، بصورةٍ غرائزيةٍ لا ترقى إلى الفهم الكامل، أن جسدها رأسُمالٍ يمكنها الاعتماد عليه، وأنه لن يخذلها كما خذلها أهلها يوم ماتوا وأسلموها للهباء.

وكانت لرفيقاتها اللواتي يتقاسمن معها سكن الحديقة مدارسٌ شبيهة. تعلمن فيها وتبادلن التجارب في ما بينهن. كنّ جرّبن التسوّل والعمل خادمتٍ في البيوت، وفي تنظيف المحلات التجارية وفي البيع فيها، ولم يصبرن على شقاء العمل بعد الدلال السابق للحرب، فرضين باحتمال الفاقة كأهون الشرّين. وصار الجوع والرعب والضجر والفراغ والكآبة والشجار في ما بينهن عناوين مكرورةً لأيامهنّ البائسة.

وبدأ يرسلن ويستقبلن رسائل (الواتس أب) على مدار الساعة للتسلي،
ولطلب العون، ولإنعاش الفرح الميت في نفوسهنّ، وجاءتهنّ الردود
الكاسرة لصمت الوحدة من حملانٍ وحيدين مثلهنّ، أو من ذئابٍ لاطيةٍ
بانظار الفرص السانحة!

حملانٌ وذئاب. شباب لم يتخطّوا العشرين، لا يريدون الالتحاق
بالخدمة الإلزامية كي لا يموتوا عبثاً، وهم بلا مدارس ولا عمل، ولا
كفاءات، ولا أمل ولا أفق بامتلاك بيتٍ أو تكوين أسرة. وسط هذا
القفر جاءتهم فرص التطوع في جيش الدفاع الوطني واللجان الشعبية
ليعيدوا لأنفسهم اعتبارها ويقبروا الخوف والفقر والوحدة والحرمان،
ويستقطبوا كل يومٍ أفواجاً جديدة.

صاروا عساكر تحتلّ الشوارع بذريعة حفظ أمن البلاد. يتجولون
بذلاتٍ مموهة وذقونٍ طويلة وسواعد مفتولة من أخذ المنشطات،
ووشوم على الأيادي ورشاشات على الأكتاف، ورخاءٍ سريعٍ يحلّ
بين يومٍ وليلة، وثروةٍ تتنامى من حواجز التشليح وتعفيش البيوت
المهجورة، وصبايا جميلاتٍ يحمن حولهم كالذباب طلباً للتمويل
وللحماية، صبايا ما كنّ ليلتفتن إلى دماثهم لولا الحلاوة والطلاوة
في السلاح والمال وقدرتهما على ترويض كل أمرٍ عسير. هؤلاء معاً
صاروا جوقاتٍ من مئات العشاق الذين يعمرّون ليل دمشق.

هم ليسوا عشاقاً بالمعنى المألوف للعبارة. هم الراضون بالوصال
المتاح، والباحثون عن متع مبتكرة لا ينفقون عليها ألماً من شدة الحبّ،
ولا دمعاً بانتظار الحبيب، ولا عذاباً إذا ما خان، ولا التزاماً ينهك الروح
لطول أمده. هو عشقٌ ابتدعه هذا الجيل الذي طوّع دنياه على مقاسه من
غير دموع ولا انتظار. كل ليلةٍ تتوزّع البنات من الحديقة إلى الشوارع

للقاء رفاق الليل، يسرعن مستتراتٍ بالعتمة وبحجاب رأسٍ رزين،
وبثيابٍ فاقعة الألوان، وضيقةٍ يتفزّر اللحم من تحتها، وخطورٍ تنادي
بالغواية عن بعد. خطورٍ لم يتعرفن إليها من لقطات (السكس) على
الإنترنت، إنما جلبنها من الواجهات التي لم تعد دكاكين دمشق تستحي
بعرضها علناً.

مهمشون وضائعون ومحرومون ولا متممون ولا مسؤولون، لا
أمام أنفسهم ولا أهل ولا أحد... محرومون متمكنون بالسلاح وبالمال
الحرام، يلتقون بمحروماتٍ وحيداتٍ بلا أسرة أو وصيٍّ أو راعٍ.
يتوزعون في ليل الشوارع على هيئة أزواجٍ تباشر المتعة، ومجموعاتٍ
تحرسها ريشما تنتهي المجموعة الأولى فيتبادلون الأدوار في طقوس
جنسٍ جماعيٍّ عربونه أن تطلب البنت ما تشاء من المال النقديٍّ أو
هدايا من المسروقات، تبدأ بسندويشة فلافل، ولا تنتهي عند (آي فون)
حديث. ولكلٍّ لمسةٍ أو قبلة، أو تمادٍ نحو العمق؛ ثمن.. ومن لا تسعفه
رجولته من الشباب الخائف أو غير الواثق بأدائه يسانده رفاقه بسيجارة
حشيشٍ تُنهضه كثورٍ لا يهاب اقتحام البنت الأقل حظاً في الجمال
بين رفيقاتها... لا أهل تخاف البنت من عقابهم حين تعود إلى البيت
- الحديقة زائغة البصر من تدخين الحشيش، ولا مدرسة توقظها من
غفلتها، ولا يقينٍ إلا ما يشي به الحاضر أنها لن تحظى بزواجٍ قريب ولن
تجد عملاً، وأن عليها أن تنفق حياتها هكذا يوماً بيوم بهذه المتعة التي
ينفق عليها الشباب مما يسرقون.

كل ما كان يجري في الخفاء وعلى نطاقٍ محدود صار الآن في
العلن طريقة عيشٍ لجيلٍ كامل. ولا أمل في مباغثة سريعة وكاسحة
للمكان ومن فيه من قبل دوريات الشرطة، لأن اللجان الشعبية أصبحت

المكلفة رسمياً بصون حرمة المكان، وتكريس العيش الحدائي لهذا
الجيل الغصّ، النامي على سقاية الحروب.

18 تشرين الأول 2014

17. يكذبان

أخذوه منذ سنتين ونصف. من ذلك اليوم لا تدري الأم ما إن كان ابنها في أرض أم سماء، ولا ابنها يدري (إن أزرى الدهر بأمه من بعده). وكان دهرها أزرى بها وأفاض. استدانَتْ أولاً 200 ألف ليرة فقط لتنال خبر أنه لا يزال حياً، ومثلها لتعرف مكان سجنه، ومثلها ثمنُ بطاقة زيارة مدَّتْها عشر دقائق.

تاهتْ قبل أن تهتدي إلى أسوار البناء الرهيب. عبرته. فتشوها ربما عشر مرّات، كأنهم يبحثون بإخلاصٍ عن نملةٍ تخفيها بين أغراضها أو في ثيابها أو تحتها. ناخ رأسها في عتمة الممرِّ وفي رعبها من أنها تسير في كوابيسها التي ألفتها كل ليلٍ، لا على أرض الأفاعي التي تقودها حقاً إلى ابنها.

من شبّاك كوريدور المبنى رأَتْ قرب السور البعيد أشباحَ شبابٍ وكهولٍ منتثرين في طابورٍ عشوائيٍّ، يحمل كلُّ اثنين منهم حجراً عملاقاً إلى زاوية السور لإكمال بنائه، ينقلان خطوهما ببطءٍ كأنَّ على الأرض صمغ. خلف كل اثنين منهم ثلاثة حراسٍ يسوطون أحدهما بالكابل إذا ناء ظهره أو حاول الوقوف ليستریح. هل هؤلاء رفاق ابنها؟ هل ابنها بينهم؟ دمدمتْ لنفسها: قد يهون الحِمل لو أنّ الرجال

الخمسة يقتسمون حمل الصخرة في ما بينهم! ثم تساءلت: لماذا لا يأتون ببلدوزر لينقل هذه الصخور؟! فلهذا صنَّع البلدوزر. ثم تذكّرت شيئاً اسمه (الأشغال الشاقّة)، وتذكّرت، في ما تذكّرت، أنهم وعدوها بتهريب ابنها إلى خارج البلد إن دفعت 10 ملايين ليرة.

في صالة الانتظار تخشّبت رجلاها من طول الوقوف ولم ينادوها لتلقاه. أرختهما على أرض الصالة الخاوية إلا من وسخٍ وبرد وأمّهاتٍ كثيرات يختلف هندامهنّ وتأتلف قلوبهنّ.

قالت الأمّ التي جلست لصقتها: «تبدو هذه زيارتك الأولى!».

حاولت أن تجيب فخانتها حنجرتها. استعانت بإسبال جفنيها الفصيحين (نعم. إنّها المرّة الأولى لي هنا). تحت جفنيها المغلقتين كان ابنها حاضراً كما لم يغب، كما يفرد كل ليلة جناحيه المرتعشين ويزورها في كوابيس المنام.

طمأنتها الجارة التي تبدو خبيّرة في شؤون الصبر وفي علوم زيارات السجون:

«نعم، الزيارة الأولى شديدة الشقاء. بعدها لن يتغيّر شيء، لكنك ستعتادين. يوم دهموا بيتنا كان ابني يلوّح بالكرتونة فوق رجليّ أبيه المحروقتين ليبرد وجعهما قليلاً. غطّوا وجه ابني بكيسٍ أسود وأخذوه. سلّني الرعب فما قدرتُ أن أجعر. ما أزال أسمع حتى اليوم غمغمة ابني من تحت الكيس الأسود. لم يشارك ابني في مظاهرة. كان إن رأى مظاهرةً في الطريق يغيّر طريقه عنها إلى وظيفته في الماليّة. مرّة واحدة فقط أغراه مشهدُ وفد السفراء الذين جاؤوا يزورون داريا، فاقترب قليلاً لا كثيراً. ومرّة شارك في عزاء ابن جيراننا لأنه واجبه تجاه ابن الجيران، لكنّ ابن الجيران هذا كان ذلك الشاب الذي وضع الماء

والورود للجيش على الطريق. في اليوم التالي أخذوه وأصبح له هنا أربع سنين. لم ألحق أن أزوجه. عمره الآن 34 سنة، في زيارتي الأولى إليه لم أعرفه. بدا أكبر من أبيه. لم أعرفه. أنا، أمه، لم أعرفه! لولا الشامة على خده ما عرفته حين اقترب، الشامة وحدها لم تتغير، وما تبقى جلد وعظم. بقيت أحرق في الشامة الكبيرة في وجهه الذي صار بحجم الكف، ولم أتأكد أنه ابني إلا حين سألتني: (ما شفي الحرق على رجل أبي يا أمي؟ صار لي 4 سنين هون وما في براسي غير شكل الحرق على رجلين أبي). يومذاك عدت إلى البيت أبكي على حاله قليلاً، وأبكي كثيراً على خيانة قلبي الذي لم يستدل على ابني).

حين نادوا على الأم الغريرة في علوم زيارات السجون لتقابل ابنها، كانت حنجرتها وليست رجلاها فقط، قد غدت حطباً يأكله السوس. فإن كان ابن جارتها لم يفعل سوى أن شارك في عزاء ابن جيرانهم، فابنها كان شريك ابن الجيران ذاك في وضع الورود وقناني الماء في طريق الجيش!

...

رأته لعشر دقائق ومن على بُعد متر والحارس لصقه. لو تستطيع شمّه، ضمّه. كان في زيّ السجن، بالبذلة الكحلّية، والبنطال قصير على رجلية المتورمتين. تبخر من رأسها كل كلام أعدته للقائه.

«اسمع: جلبت لك بيجامة على مقاسك. وشحاطة جديدة. اخلع هذه الشحاطة المشلّخة. طوال عمرك كنت أنيقاً وتحبّ (الجخّ). في الأغراض أيضاً ستجد جوارب صوف. البسها. الدنيا برد».

«أبدأ ما في برد، ما بحتاج جوارب. عنّا هون دفا وعنّا كمان تكيف».

«طيب نحن بخير. أحوالنا تمام. أبوك بخير. صحته حديد. زوجتك

بخير، سممت كثيراً. ابنك صار في المدرسة. ابنك طلع الأول في صفه.
وهو ونحن، كلنا، لا ينقصنا شيء».

...

بقيا واقفين، الأم وابنها، تكذب ويكذب، إلى أن مضت الدقائق
العشر.

2016

18. هل يفارق الطبيب مهنته مختاراً؟

وليس الهجر هنا ذلك الانقطاع القسري عن مزاوله الطب بسبب مرضٍ أو حادثٍ، أو انعدام فرصة عمل، ولا الحديث هنا عن الطبيب الذي، لبالغ الأسف، لم يرتقِ إلى نبالة مهنته، ولم يكن طبيباً حكيماً، ولا مداوياً، وربما هجره للطب أقلُّ أذىً من استمراره فيه.

إنما ماذا عن الطبيب الحكيم، الناجح، المتقن لمهنته، والذي مهنته قيمةٌ عليا في شخصه، ويحبها وتغلو لديه كما حياته، ويرعاها كأنها حبيبة، ويهبها خلاصة علمه، وتمنحه الشعور بالرضا، وتجعل مرضاه أفراداً من أسرة قلبه مثلما هو حيٌّ في قلوبهم.

هل يستطيع هذا الجراح هجر مهنته؟

أعرف كثيرين من حملة الشهادات في الهندسة أو التعليم أو المحاماة، هجروها إلى مجالاتٍ أخرى، ولم يعذبهم ذلك الحرمان أو الأسف الذي لا يخفى، بينما نادراً ما يفعل الأطباء ذلك.

لا يكاد الطبيب يياشر مهنته، إلا وتتعشق تحت جلده وتندخل في عظامه. تنشأ بينهما علاقةٌ تبدو للوهلة الأولى غير مفهومةٍ، أو لنقل: مستهجنة! مهنةٌ تستملك صاحبها ليل نهار، وتستنزفه دون ذرةٍ من

رحمة، وترهنه للقلق الدائم حتى في أثناء نومه، وتراه يذعن لسطوتها ولا يتذمّر...

هل يتخيّل أحدكم ملامح الجراح في غرفة العمليات، تحت الضوء الحارّ والكاشف، وحيث تطنّ أجهزة رصد القلب والتنفس وكيمياء الدم كقفير نحل لا يطيق السكون؟!

لتتخيّلهُ يُجري جراحةً نظامية لا تعقيد ولا خطورة خاصة فيها، وربما يكون أجرى مثلها مئات العمليات، ويتابع عمله الآن بهدوءٍ وروية، ولا يصادف خلاله أيّ طارئٍ يستدعي منه التحفّز أو تشغيل احتياطيّه الفكريّ أو الجسديّ. ومع ذلك، فلن يكمل عمله، صيفاً أم شتاءً، ووسط تكييفٍ نظاميّ، حتى تكون ثيابه مبلولةً بعرقه. ذلك أن احتياطيّ روجه كلها يكون مستنفراً في أثناء الجراحة من غير أن يستدعيه الوعي. ولن يغادره التعرّق إلا بعد أن يصحو مريضه من التخدير، ويصير على سريريه بين أهله.

كل هذا ولم يأت الحديث بعد عن الجراحات الخطرة أو الاختلاطات التي قد تهبط كالغول الخرافيّ مفاجئاً وصاعقة.

ماذا عن مناوبات الليل؟ الليل الذي يستحيل كله إلى نهارٍ معجوقٍ بكلّ أشكال التعب، قد لا يتسنّى للمناوب النوم، وقد تأخذه إغفاءةٌ حلوةٌ، لدقائق، على الكرسيّ البلاستيكي، ويطلع النهار، وعليه أن يسلم المريض إلى زميله التالي. قد يغادر وضميره متعلّق بالمريض الأضعف، وقد يراوغ الوقت ليراجع للمرة العشرين خطة العلاج التي وضعها له: هل أغفل شيئاً يا ترى؟ - يسأل نفسه - هل أخطأت في وصف دواءٍ ما أو طلب تحليلٍ أو مشورة؟! ويغادر وعينه مسلوتان على باب الجناح الذي صار في عهده غيره، وقد يعاود الاتصال هاتفياً بزميله ليسأله عن حال فلانٍ من المرضى...

ترى هل في الحياة ما يستحق كل هذه الشدة؟!
نعم. سوسة الجراحة تستحق هذه المغامرة اليومية الرهيبة
والمتكررة.

كل جرح يُحفر في الجسد المريض هو أملٌ خالصٌ باسترداد العافية
حين لن تستعاد إلا بأناقة المشروط.

تُنازع الجراحَ رغبةٌ مؤلمةٌ في هجر الجراحة حين تفشل على يديه
عمليةٌ معقدة، أو حين يدهم الموتُ مريضاً كان حاله ينبئ بالموت بينما
لم يكن الطبيب يريد أن يصدّق أو يستسلم.

وتنازعه النفس إلى هجر الجراحة حين تستهلك حالات الإسعاف
طاقته وصبره، يأخذه الحلم إلى حياةٍ لا يديرها القلق والاستنفار الدائم
وسط الشكوى والألم وأمراض الجسد التي لا تنتهي... يحلم أن يسافر
بعقله ووقته بعيداً عن شدّات الجراحة إلى هواية طالما شغفته، أو إلى
مهنةٍ أخرى أجدى ربحاً وأقلّ عناءً، أو إلى التقاعد عن كل عمل، بغاية
الراحة من شقاء أي عمل، أو إلى منصبٍ حكوميٍّ مهيب يغويه بفتح
مغاليق الشهرة، والظهور على الشاشات، ويطول من موقعه فيه كل ما
تشتهي نفسه.

قد يضعف فيقرر الاعتزال. ويبالغ إذ يقرّر أن يعتزل بتاريخ كذا...
لكنه لا يجرؤ أن ييوح بقراره لأحد، وكأنّ قراره هذا جريمةٌ أو نقيصة
أو عار. وما إن يقترب التاريخ حتى يجبن ويغير رأيه، أو يُرجى اعتزاله
لغاية انتهاء هذا الشهر، ثم هذه السنة، ثم سنة أخرى، ويظل متأرجحاً
بين متاعب المهنة الجسيمة وإغراء الراحة من شجونها، ونظّل المهنة
تتنصر ما دامت عافيته تسعفه.

الجراحة؛ كأنها لعبة القمار تستحوذ عليه وتغريه بالمتابعة حين

يجني في الجولة عافيةً أكيدة، وتغريه بطلب التعويض ورد الخسارة
بمحاولةٍ جديدة حين تفشل السابقة، وكأنه على موعدٍ دائمٍ مع انتظار
العافية، وعدم الرضا إلا باستعادتها.

كيف إذاً حين تكون الجراحة نسائيةً، وتكون الكتلة التي ستخرج
من البطن مولوداً ليناً وناضجاً سيأخذ مكانه في عالمنا الأرضي ويقلل
من قسوته؟! من قسوته؟! من قسوته!؟

وكيف إذاً حين تكون الجراحة امرأة؛ أنثى تُوائم في جوفها كلَّ
هذا الفصام ما بين رقة قلبها وحزم يديها؟! ترى هل يمكنها الهبوط من
علياء الخلق القريب من روح الله، إلى عادية التلقي؟! من قسوته!؟

.....

عني أنا؛ كم نويتُ هجران الطب إلى الدنيا الوسيعة، أو إلى مروج
الأدب؛ وفي كل ضعفٍ، وعند كل عتبة، أجد كلَّ ما فيّ يتنصر للطبيبة
مني.

19 أيلول 2015

السويداء بقعة سورية متروكة للريح

19. عن السلاح

صورة السلاح في طفولتي لرجة. يعلق منها في ذاكرتي لمعان ذلك الشحم على جذع بارودة (الفشك) التي اصطاد بها جارنا ضبعاً تسلل إلى حارتنا في ليلة ثلج، وكيف روى لأهل الحارة، بفخرٍ وفيرٍ، كيف تبع أثر خطوات الضبع البشع حتى لاقاه عند باب مغارته البعيدة، وأرداه بفشكةٍ وحيدة صوّبها إلى عنقه، وجرّه بصبرٍ من هناك حتى أوصله إلى التلة الصغيرة بين بيوتنا. يومذاك تكورنا، نحن أطفال الحارة الصغار، مبهورين حول الضبع نتأمله ممدداً مستكيناً ملطخاً بدمه، وباعثاً رائحته الكريهة والمدوّخة، ونسجنا حوله، وحول بارودة الفشك المهيبة، حكاياتٍ مروّعة تنعش محيطنا الراكد، في تلك الأيام، كسبخةٍ لا تجففها شمسٌ ولا تدغدغها ريح.

وصورة السلاح في طفولتي أيضاً رهيبة. تحتفظ، بحرصٍ وجلالٍ، بتفصيلات ذلك اليوم الذي انشغلت فيه قريتنا بحدثٍ فريدٍ أسعفها برشقة (أكشن) سرّعت نبضها الكسول حدّ السأم. في ذلك اليوم داهمت قوات الأمن أحد البيوت بدوريةٍ مدجّجة بالسلاح، وتوجّه أفرادها جميعاً نحو باب (التبان) خلف ذلك البيت، وعاثوا بأكوام التبن التي يخزنها صاحب البيت علفاً لأغنامه، ونبشوا من مكانٍ معلومٍ، محدّدٍ

بالتأكيد، في التقرير الذي وشى به، ربما، أحد الأقرباء أو الجيران، قطعة سلاح (غير مرخصٍ) ملفوفةٍ بحنانٍ وعنايةٍ كبيرين بقماشٍ أبيض، كأنها طفلٌ غير شرعيٍّ هو الأعلى على قلب راعي البيت، إنما عارٌّ عليه أن يدري بأمره أحد. أستعيد بوضوح كيف رسخت في عيني الطفلة يومئذٍ صورة ذلك الرجل، عيناه العائبتان والمكسورتان والمخزبتان حين ساقه رجال الأمن مكبلاً بينما يحتضن أحدهم تهمته الدامغة، سلاحه الأثير، الذي نام على سراً امتلاكه سنينٍ طويلةً، يستعين بجواره على الخوف من الضباع أو الذئاب أو من أعداء غامضين، أو يفاخر بتحفته أمام الأقربين، الذين لم يكن أحدهم أميناً على السرِّ، كما يجدر بالأقربين.

وغير ذلك لم يحضر السلاح في حياتنا، أنا وأبناء جيلي، إلا ما تلقيناه في دروس التربية العسكرية من تدريبٍ على البواريد التشيكية، أو ما يرويه الذكور عن حقبة خدمتهم العسكرية حول لقاءاتهم النادرة، وغير الودية، بالأسلحة الخفيفة والثقيلة في ساعات التدريب.

الآن، ونحن أبناء السويداء المدينة التي لم تدكها النيران الصديقة، ولا العدو، ولم تنكّل بها الحرب الماضية في ازدهارٍ على امتداد البلاد، لعامها الرابع على التوالي، صرنا، نحن - سكانها (الأميين) - نتقاسم العيش مع أكوام السلاح الوافد علينا من كل صوب، ونتألف معه بقبولٍ ويُسرٍ كما لو أنه يأتي من قاع ذاكرتنا الجماعية.

تجول في المدينة سيارات البيك آب التي تنتصب على ظهورها قواعد الشيلكا والدوشكا وبواريد القنص، وصناديق القنابل اليدوية. سياراتٌ كاملة الصلاحية بقطع الطرقات الرئيسية وتعطيل أشغال الناس في أي وقت (لأسبابٍ أمنية يقصر عن الناس فهمها)، ترفرف

فوقها رايات حزب الله، جنباً إلى جنب مع العلم السوري، وعلم حزب البعث، ويحاوطها مديون يلبسون بذلات عسكرية مموهة على أكمامها شعاراً حزب الله، الأخضر والأصفر، أو شعار صاعقة الحزب القومي السوري. وقبلهم، وعلى رأسهم بالتأكيد جماعة حزب البعث وجماعة الدفاع الوطني الذي استقطب الشريحة الأوسع من الشباب والكهول الفقراء والعاطلين عن العمل ومن أصحاب السوابق الجرمية وجنّدهم شركاء في (فصّ الأزمة).

هناك أيضاً جماعة الأجاويد الذين تسلحوا وتدرّبوا على نيّة حماية الأرض والعرض من أي خطر (خارجي)، وجماعات مغلقة كثيرة غير معلنة ينتمي كلّ منها لأحد فروع الأمن، وجماعات تتبع لجهات مجهولة أو متكهن بها.

مديون يثقلون بأسلحة فردية خفيفة ومتوسطة، ولكل من هؤلاء مرجعيته التي لا تنسق مع باقي المرجعيات، أو التي ترى نفسها مرجعية وحيدة وكافية. بينما جيش البلاد النظامي، أو ما تبقى منه، ما زال يحارب (العصابات المسلحة) على امتداد البلاد، خارج حدود محافظة جبل العرب.

كلهم يتجولون بغطرسة في قلب السوق. وسط الزحمة العميمة، يتحرّش حديد أسلحتهم من على أكتافهم بالنساء والأطفال وطلاب المدارس، ولا يعتذرون ولا يجروّ أحدٌ على رفع وجهه أو صوته في حضرة بنادقهم.

وبباع الموس الكباس والخناجر والبوكس الحديدي والبلطات والعصي الكهربائية علناً على البسطات فوق أرصفة السوق. وتكمن الرشاشات تحت بسطات البضائع التي غزت الساحات.

وتعلو السواتر الترابية أمتاراً حول أبنية فروع الأمن التي حمت أمنها وأوكلت أمن الناس إلى إبليس العاقل والرحيم.

وفي مدارسنا الابتدائية، ابتليت المرشدات النفسيات بمهمةٍ جديدةٍ مضمّنة: أن يملكن ما يكفي من الحكمة لتجريد التلاميذ من السكاكين والبوكسات المعدنية والشفرات المسننة وسائر المعادن الحادة المخفية في حقائبهم بدلاً من الكتب أو القصص أو السندويشات، ويتحسرن على الأيام التي انشغلن فيها بالتوجيه والتربية، أو حتى بمصادرة (الكلل) التي كان التلاميذ يقامرون بها في الفرص بين الدروس على أمل كسب سندويشة أو كأس شاي على حساب المغلوب.

وساكن السلاح الناس في بيوتهم. كنت أمزح مع صديقتي: أعتقد أنه لم يبق في البلاد مواطنٌ أعزل باستثنائنا أنا وأنتِ، نحن - السلميين الركيكين - الذين لم يؤمنوا حتى اليوم أنّ: (السلاح ضرورةٌ، والسلاح كرامة)!

أصبح السلاح، الذي كان صاحبه يخبئه في (التبّان)، يزيّن الآن صدور المضافات، يجاور صورة السيد رئيس البلاد، وأبيه الرئيس السابق، وصورة سلطان باشا الأطرش، وجمال عبد الناصر، وصورة ربّ البيت وصور أسلافه الميتين. وصار السلاح يتعرّش على كتف حامله في طرقات المدينة، يزهو به حامله كما تفخر فتاة بجزدانها الـ(ماركة!). يركنه أجير الفرن على الطاولة بين الأرغفة: عينٌ على السلاح، وعينٌ تعدّ أرغفة الخبز. يندسّ حامل الرشاش في طابور الصرّاف الآلي ويرعب الموظفين المنتظرين سحب (الإعاشة) من فم الصرّاف أول كل شهر. وطال هذا السعير كلّ من عجز عن تأمين السلاح بالمال المتوفّر، فباع أرضه أو مصاغ زوجته ليقتني سلاحاً كما سبق أن فعل كلّ جيرانه.

لماذا يتكدس كل هذا السلاح؟ وماذا قد تكون المهمات الموكلة إليه ما دام لم يند الفتن المتلاحقة بين أهالي المدينة والقرى، والبدو القاطنين في أطرافها، ولم يحم السيارات بين المدينة والريف أو بينها وبين العاصمة دمشق من التعرض لإطلاق نيران مجهولة المصدر عليها، أو تشليحها أو سرقتها، ولم يلجم الفلتان الأمني في كل مكان، ولم يمنع خطف أي مواطن، ولم يستعد مواطناً واحداً تم خطفه، ولم يضبط أسعار السلع التموينية والاستهلاكية، ولم يفعل المخالفات التموينية، ولم ينظم قوانين السير، ولم يحم من سرقة البيوت، ولم يعد ولو غرضاً مسروقاً لأحد، ولم يدافع عن هيبة الدولة التي صارت في خبر كان؟!

أنجز السلاح على أرض الجبل كثيراً من (البطولات الفردية)! وكم تكثر الأمثلة: الوالد الذي ألهبه الحماس في تشييع أحد شهداء الجيش فأطلق مشط رصاص أصابت واحدة منه ابنه فقتلته، وابن العم الذي تشاجر مع ابن عمه، فعاجله برشقة من رشاشه ودلق أحشاءه على الطريق، ورجل الدفاع الوطني الذي انفجرت قبلة يدوية في بيته في ظروف غامضة فمزقت زوجته وبناته ومزقتة.

لكن «مأثرة» السلاح الفريدة تبرز في بطولاته الجماعية: في كونه التهم حفنة العقل التي كانت في رؤوس حامله، وتمطى على بقاياها، وأصمت صوت العقلاء؛ غيَّبهم خلف أبواب بيوتهم، وتصدّر منفرداً صدور الساحات، وصدور المضافات التي تكرّست في ذاكرة الجبل منبراً لصوت العقل، ولصوت الوطن على امتداد تاريخه.

30 آب 2014

20. عن واقع السويداء أواسط عام 2014

الموحدون (الدروز) موجودون على امتداد بلاد الشام. ومع أنّ قراباتٍ وطيدة ومصاهراتٍ كثيرة تجمع بين دروز فلسطين والأردن ولبنان وسوريا، إلا أن حَسَّهم الجمعيّ يتبع للدولة التي يتمون إليها: ولاءُ الدروز في لبنان لدولة لبنان، وولاء الدروز السوريين للدولة السورية. وهكذا.

في سوريا ينتشر الدروز في ريف إدلب، وريف دمشق والقنيطرة وفي السويداء ريفاً ومدينة. وتعتبر السويداء في الجنوب السوريّ عاصمة جبل العرب (جبل الدروز) الذي استوطنه منذ القرن الثامن عشر. كانت للسويداء ولا تزال مكانتها وأهميتها السياسية والإدارية في الدولة السورية. تعداد سكانها قرابة 400 ألف نسمة بينهم المسلمون والمسيحيون، لكن غالبية سكانها العظمى من الموحدين.

لم يستتب للاستعمار العثماني أمنٌ في جبل العرب طوال فترة حكمه، ولم يتمكن من السيطرة عليه. وحين انطلقت الثورة العربية الكبرى ضد الاحتلال العثمانيّ عام 1916 اندفع الدروز للمشاركة في هذه الثورة والانضواء تحت رايتها العربية بقيادة الشريف حسين.

في عام 1921، وفي نطاق التقسيمات التي فرضها لتفكيك سوريا

خمس دويلاتٍ صغيرة؛ أعلن الانتدابُ الفرنسي قيام دولة جبل الدروز، وألّف فيها حكومةً ذات مؤسسات رسمية مستقلة. لم يعلن زعماء الجبل أو الهيئة الروحية فيه رفض هذه الحكومة فوراً، إنما علا صوت الحراك الشعبي في العام التالي إثر حادثة اعتقال الثائر أدهم خنجر الشهيرة، التي أطلقت شرارة الثورة في الجبل بقيادة سلطان باشا الأطرش ضدّ المحتل الفرنسي. وكان الفرنسيون طاردوا خنجر في ريف الشام، فاستجار بمضافات أهل الجبل الذين يعتبرون المسّ بضيفهم إهانة لكرامتهم. واختير الأطرش لاحقاً قائداً عاماً للثورة السورية الكبرى عام 1925 تحت شعار «الدين لله والوطن للجميع».

في حقبة الاحتلال الفرنسي تعرضت المحافظة لقصف الطائرات الفرنسية واجتياح دباباتها، ولم ينزح السكان خارج حدود جغرافيتهم، ولا مرّة. كان لهم تكتيكٌ متفردٌ حين التعرض لأي هجوم: إجلاء السكان جميعاً نحو أماكن آمنة ومحصنة على أكتاف جبالهم أو قممها، أو إلى المغاور الصخرية المنتشرة حول كل منطقة أهلة. فحين اجتاح القائد الفرنسي غاملان السويداء بحملته التأديبية الشهيرة، لم يجد في المدينة أو قراها أحداً من السكان.

استقطب حزب البعث الذي تأسس بعد استقلال سوريا أعداداً كبيرة من الدروز، ومنهم من كان ساهم في تأسيسه ثم الدعوة إليه، حين رأوا فيه حزباً قومياً اشتراكياً لادنياً يناغم تطلعاتهم العروبية. وكان للضباط الدروز أيضاً أدواراً مؤثرة في فترة الانقلابات العسكرية التي أعقبت جلاء الفرنسي عن سوريا.

السويداء محافظة اغتراب. اعتادت على هجرة شبابها في طلب الرزق إلى أي بلدٍ يفتح لهم أبوابه بعدما انغلقت في وجوههم أبواب بلدهم، بحيث شكّل المال الذي يرسلونه إلى ذويهم من مغترباتهم في

الأمريكيتين والخليج ولبنان والأردن، أهم مصدرٍ للدخل، إلى جانب محاصيلهم الزراعية.

في أثناء حكم الرئيس حافظ الأسد التحق شباب السويداء بالوظائف الحكومية المدنية والعسكرية، وأنشئت في المحافظة مراكز التطوير الزراعي، فيما لم تقم فيها أي مراكز صناعية أو تجارية، في الوقت الذي بدأ الأهل ينتبهون إلى حُصّ أبنائهم على التحصيل العلمي العالي من غير أن يترافق ذلك مع تأمين فرص عمل لهم ضمن اختصاصاتهم التي عادت المهاجر لاستقطابها حين أهملتها حكومة البعث.

في أول حكم الرئيس بشار الأسد جرى ما سُمّي «حوادث البدو» عام 2000 حين هبّت المدينة وقراها في ساعات قليلة وأعلنت الإضراب العام واعتصم الألوّف أمام السرايا (دار المحافظة) حدّاً أن الأمر فهم أن في نيتهم إسقاط حكومة الرئيس الجديد، في حين كان مطلبهم أن نفي الحكومة التزامها في حماية الأهالي، وأن تكفّ عن تحريض البدو على ترك مواشيتهم ترعى في منطقتي الاستقرار الأولى والثانية، وألا تتغاضى الحكومة عن تكديسهم السلاح وإشهاره في وجه الأهالي.

لم يكن البدو الرّحل والدروز الحضريون يوماً أعداء. تعايشوا دوماً كفتّين لا تستغني الواحدة منهما عن الأخرى، حتى قبل أن يتوطّن البدو في أطراف ريف السويداء والمدينة. هم مثل باقي سكان المكان لا يبغون أكثر من السعي خلف رزقهم. يعتني البدو بمواشي الدروز طوال العام ويعطونهم منتجاتها وفق اتفاقٍ معلوم، ويحصدون زرعهم ويقطفون ثمار بسايتهم كعمالٍ مياومين لا يستغنى عن يدهم العاملة.

اعتمد أهالي السويداء في أمنهم دوماً على الدولة ولم يحاولوا امتلاك أسلحة فردية، فيما اعتاد البدو على التسلح اللازم لحياة الترحال.

دأبت الحكومة على افتعال الانتهاكات عبر بعض ضعاف النفوس من البدو، حتى تُشعر الأهالي دوماً بحاجتهم إلى حمايتهم، ولم تتدخل حين كان عليها أن تفعل. كانت اللعبة مفضوحة إلى الحد الذي وُلد احتقاناً كبيراً تفاقم مع مقتل أحد شباب الدروز على يد بدويّ أطلق أغنامه في كرمه، فاحتجّ الأهالي وتدخل الجيش، فقتل نحو عشرين شاباً من الدروز في أثناء احتجاجهم، جميع إصاباتهم كانت في الرأس والصدر. ومن ذلك اليوم أنشئ في السويداء فرع المخابرات الجوية السيئ الذكر.

هم بنو معروف

دروز السويداء كمجتمع: بنو معروف. تصنيفهم الديني: طائفة الموحدين الدروز. انتماؤهم الوطني: سوريون. وانتماؤهم القومي: عرب.

المجتمع الدرزي شديد الخصوصية. هو مجتمعٌ يتماهى فيه العامل الديني بالثقافي والاجتماعيِّ حدَّ الانصهار. يحال هذا التماهي إلى طبيعة هذا المذهب المختلف جوهرياً عن باقي مذاهب الإسلام من حيث باطنيته وسريته وانغلاق شروحه على مَنْ هم من خارجه. وكذلك ما تنطوي عليه تعاليمه من انغلاق باب الانتماء إليه على من قد يرغب في ذلك، بعد انتهاء فترة الدعوة إليه التي بدأت في عهد الخليفة الفاطميِّ الحاكم بأمر الله عند مشارف عام 400 للهجرة، وانغلقت نهائياً في نحو عام 428 للهجرة. ويستند في هذا المسار إلى الإيمان بالتمص، أي انتقال الروح من جسد إلى جسد عبر تتابع الأجيال. أي أن من اختار مذهب التوحيد في عهد الحاكم بأمر الله لا يزال يحيا بهذه الروح منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين. وأن أسلاف دروز اليوم

هم أنفسهم من اختاروا مذهب التوحيد في عهد الحاكم بأمر الله. أي أن المجتمع الدرزي أسقط من حساباته مشروع الانتشار المحلي أو العالمي، ولا يملك مشاريع تبشيرية توسعية لاستقطاب أفراد أو جماعاتٍ جديدة، كتلك التي تسعى إليها باقي فئات الإسلام، وأنه يكفي باتباعه المختارين. أقصى طموحاته في هذا المجال أن يحافظ عليهم ويصون وحدتهم وكرامتهم ويحفظ كيانهم من التفكك ومن كل عدوانٍ خارجي محتمل.

نسبة محدودة من أبناء المجتمع الدرزي تتبع تعاليم الدين. هؤلاء يسمّون «الأجاويد» الذين يمكن أن يرتقوا بطاعتهم لله إلى مرتبة «العقل»، في مقدمهم مشايخ العقل الثلاثة الذين يعتبرون المرجعية الروحية للدروز كافة. أما غالبية المجتمع الدرزي فيسمّون الجهّال (الجسمانيون، الجاهلون في أمور الدين)، أي غير المتدينين الذين ينتمون بحكم المولد والنشأة والموروث الاجتماعي إلى هذا المجتمع إلا أنهم لا يعرفون شيئاً عن عبادات دينهم، ولهم من مذهب التوحيد الاسم ولا شيء سواه، ومع هذا فهم يضمرون الانتماء لإرث هذا المجتمع وثقافته، ويحترمون مكانة رجال الدين (الأجاويد)، وقد يستشيرونهم في ما يعسر عليهم من أمور دنياهم، أو يطلبون مباركتهم لمشروع حياتي يقدمون عليه. في شأن الزواج مثلاً، لا يكفي تسجيل الزواج في المحكمة الشرعية، ولا يعتبر عقد الزواج شرعياً بين عريسين درزيين إلا إذا أبرمه وأشهره رجل دين مختار من بين الأجاويد. في الملمات التي تعصف بالمجتمع الدرزي تبقى كلمة الأجاويد هي الأولى والمتبعة، وحين يرمي الأجاويد الحرم على من ارتكب الكبائر في حق نفسه أو في حق الجماعة؛ يصير هذا الحرم نافذاً.

لكل من فتّي الأجاويد والجهّال أسلوب حياة مختلف كلياً عن

الأخر، ومنغلق عنه. فالمتدين (الجويّد) لا يتزوج إلا من متدينة، ولا ينتسب إلى أيّ حزبٍ سياسيٍّ أو غيره، ويزاول الأعمال الحرة، ويرفض كسب رزقه من الوظائف الحكومية، ولا يكثر بالتعليم الديني بقدر حرصه على التبحّر في أمور دينه. والعكس صحيح. فالجسمانيون منهم اختاروا طريق العلم. وفروا لأبنائهم وبناتهم على السواء أعلى ما يستطيعون من تحصيلٍ علميٍّ، وانخرطوا بفعالية عالية في الأحزاب السياسية السورية على تنوعها، وخرج بعضهم على عُرف الجماعة حين اقترن بزوجةٍ من خارج الطائفة.

لكنّ في موروث المتممي إلى المجتمع الدرزي بأجاويده وجسمانيّيه خصلاً جامعة ساهمت في تكوينها الحياة المشتركة. فمثلاً: تتواصل الفتتان في محطات الحياة لكل منهما، كطقوس الولادة والزواج والطلاق والمآتم، وحلّ القضايا الخلافية، بحيث تتبعان كلتاهما سلوكاً جامعاً قد لا يعثر له على تفسير، لكنه يُتبع كإرثٍ ديني - ثقافي - حياتيٍّ في آن واحد، بحيث لا يمكن فصلُ أحد هذه المؤثرات عن الآخر.

مذهب التوحيد يقدر الإنسان، ويقدر العقل في الإنسان. أتباعه، كعقل جمعيٍّ: وطنيُّو الولاء. يوصي كبارهم صغارهم: وأطيعوا الله وأولي الأمر. وتقضي تعاليم دينهم بالاقتران بزوجة واحدة فقط، والطلاق عندهم وحيدٌ وبائنٌ لا رجعة عنه. وهم يحفظون حق العائلة والقربة والجيرة ويندمجون في كل مجتمع آخر يكونون فيه خارج حدود سكنهم، ولا يبادرون باقي المعتقدات بالعداوة، وفي الوقت نفسه لا يسكتون على ضيم، ويستمتتون في الدفاع عن أنفسهم. أباءً، شجعان، ذادة حياض، كرام النفوس، فُرة ضيف.

يضمّر الجسمانيون، على الرغم من عدم تديّنهم، تقديراً عالياً

للأجاويد ويمنحونهم صدر المجالس في المحافل العامة حتى وإن كانوا الأصغر سناً بين الحاضرين، والأجاويد يتكلمون أولاً، وتُحترم تعاليمهم ووصاياهم. ويدرك كل فرد من الجماعتين في لواعيه أنه ينتمي إلى هذه الجماعة في المصير، ولذلك حين يستشعر الطرفان أي خطر خارجي يصيرون كلاً واحداً يقتدي بمواقف العقل بحيث يصعب على من هو من خارج هذه الجماعة أن يميز من منهم هو العقل المخطط.

هذا في الموروث؛ الموروث الذي لن يستيقظ إلا في أشد الشدائد، أي إذا هددهم خطر وجودي.

أما واقع الحال في السنوات الأربع الماضية، التي اعتبرت السويداء خلالها محافظةً آمنةً مواليةً للنظام على الرغم من أن الفساد والقمع وإذلال الإنسان قد استشرروا في الدولة السورية كلها، بما فيها السويداء. ومع أن النخبة المتعلمة والمثقفة من محامين ومهندسين وأطباء ومعلمين قد انخرطت في الثورة منذ أيامها الأولى؛ فإن الشريحة العظمى من الناس ظلّت على حيادها اقتداءً بموقف مشيخة العقل التي دأبت على إحقاق صلاحياتها عبر حكومتها. وهذا لا ينفي الاحتقان الشعبي المزمن عبر خمسة عقودٍ تكرر فيها تهميش المحافظة، وإهمالها، وتفجيرها، وتهجير أبنائها، والتكيل بأصحاب الرأي فيها ورميهم في السجون، الأمر الذي بالغ النظام في تكريسه منذ أيام الثورة الأولى، وحشد له بذكاءٍ وخبرةٍ وبكل وسائل البطش كلّ ما يستطيعه من تهريبٍ لمناهضيه، ومن امتيازاتٍ لمناصريه الذين بهم يضرب مناهضيه بوحشيةٍ يصعب حتى تخيلها. استحدث لجاناً شعبيةً أمنيةً وحزبيةً وضع أمامها مهمة صارمة وحيدة: أن تمنع نزول الناس للتظاهر في الشوارع، وخولها إهانتهم وضربهم وسحلهم وسجنهم

وتلويث سمعتهم بالعمالة للحركة الوهابية التي واظب في إعلامه على اعتبارها المحرّض الأساسي على عصيان الشعب السوري لأولياء نعمته، التي يعلم الدروز أنها تكفّرهم وتحلّل استباحة كيانهم كاملاً. وبما أن نصف الشباب المقيم في السويداء متطوع خلال العقود الأخيرة في المؤسسات المدنية والجيش والشرطة والأمن، وهذه الفئة بالذات تدافع عن لقمة عيشها في وظيفتها الحكومية، والنصف الآخر إما في المغترب وإما عاطلٌ فعلياً عن العمل، فقد سارع النظام إلى تشكيل جيش الدفاع الوطني الذي استقطب كل العاطلين عن العمل والزعران الذين كان أودعهم في سجونهم بأحكام جرمية، وأصحاب السوابق. ومنح هؤلاء رواتب شهرية وسلّحهم وأطلق يدهم كمخبرين على الثائرين والصامتين، وكمشعلين للفتنة بينهم بأعمال السرقة والخطف ونشر الشائعات عن المسلحين الإسلاميين وقرب دخولهم إلى السويداء لذبح رجالها وسبي نساها. هكذا انزوى العاقلون في بيوتهم، وصارت الكلمة العليا للسلاح. في الوقت الذي بدأ فيه تسليح الثورة، وحلّت محلّ مطلب الحرية والكرامة، الشعارات الإسلامية على راياتها، مما أدى بالجموع الصامته إلى أن تبالغ في حيادها وصمتها، والنأي بنفسها عن معارك لا تعتبر نفسها أحد أطرافها.

لم تبدّل النخبة المتنورة موقفها. شاركت أيام التظاهر في التظاهرات الخجولة في السويداء، وناصرت المتظاهرين في درعا ودمشق وريفها وفي حمص، وتلقّت التعذيب والسجن والترهيب والمحرابة في لقمة العيش. بُذ المعارضون من ذويهم وجيرانهم، وأتهموا بالعمالة للخارج ولم يبدّلوا موقفهم، ولم يتراجعوا، وتفانوا في احتضان النازحين إلى السويداء من كل بقعة سورية قصفتها النظام. ساهموا بمالهم وبوقتهم وبجهودهم في أعمال الإغاثة، ومنهم من تفرّغ لها كعملٍ طوعي

خالص على الرغم من الخطر الأمني المحدق به، وتقاسم مع النازحين (المسلمين السنة) السكن وأغراض البيت. للحق، ظلت لأعمال الإغاثة صبغة أهلية في أكثر من 80 في المئة من نشاطاتها، إذ ساهمت فيها جميع الشرائح الشعبية بغض النظر عن موقفها السياسي، لأنها، من غير أن تقصد، كانت تتصرف وفق موروثها الاجتماعي الذي سبق ذكره والذي يكرم الضيف أياً كان. في حين تقاعست الحكومة عن أداء واجبها تجاه النازحين السوريين الذين يفترض أنهم فرّوا من نيران الإرهابيين المسلحين.

مع استمرار التسليح كعدوى طالت كل الأراضي السورية، صار الأهالي يحاولون شراء الأسلحة الفردية بأي ثمن، وأعلنوا أنهم لن يستخدموها لا لصالح النظام ولا الثورة، إنما لدرء أي خطر قد يهدد أهل بيتهم.

للدروز كباقي الطوائف مشكلاتهم: هناك انقسام في مواقف مشايخ العقل: الذين يختلفون في مدى مناصرتهم للحكومة، وفي مدى إنصاتهم إلى نبض الشارع الذي أنهكه انفلات الأمن، وقبله الفقر والغلاء وتدني الخدمات المعيشية إلى الحضيض. ففي حين يتخذ أحد المشايخ موقفاً حازماً من النظام لمصلحة جماعته على الأقل كي تبقى على الحياد، يبالغ آخر بالارتداء في حزن النظام الذي يعده بامتيازات إضافية. أقصى ما فعلوه هو رمي الحرم على كل متطوع في جيش الدفاع الوطني يشارك في عمليات دهم البيوت خارج محافظة السويداء، وما قد يتبع ذلك من قتل أو سلب أو تشليح أو سرقة تلك البيوت. مع ذلك ضرب بعض عناصر الدفاع الوطني بهذا الحرم عرض الحائط وشاركوا في دهم الجيش للبيوت في مدن سورية كثيرة، وحرص الإعلام على إبراز دورهم في قتل إخوانهم السوريين لتأليب الجميع على الجميع.

في صفوف المعارضة لا يختلف الأمر عن حال المعارضة السورية ككل. لم يتفقوا على قيادة موحدة في ما بينهم وظهرت بينهم أصوات إقصاء الآخر المعارض، والتشكيك في أدائه ونياته، وحتى تخوينه.

المخاوف الوجودية اليوم

للدروز الآن مخاوفهم الوجودية بالتأكيد. فقد أفاقوا بعد ثلاث سنواتٍ سورِيّةٍ دامية، وفي هذه البانوراما السورية الشديدة التعقيد الآن؛ أفاقوا على حالٍ صاروا فيها خارج حسابات النظام وخارج حسابات المعارضة.

مخاوفهم كثيرة، وإيرادها هنا لن يكون حسب أهميتها، فكل سببٍ منها كفيلاً وحده بزعة استقرارهم، بل وجودهم.

مخاوفهم تأتي أولاً من غموض المخططات العالمية التي تحاك للمنطقة ككل، من تلويحٍ بالتقسيم، وبوادر لتجزئة الوطن الواحد، ولإقامة كيانات أو إمارات ذات صبغة دينية. الأمر الذي يرفضه الدروز عبر تاريخهم الوطني، ولم يكن له مكان في أجندة طموحاتهم؛ بل أعلنوا رفضهم له حين فرضه عليهم الاحتلال الفرنسي ذات يوم، ولم يرتضوا الانسلاخ عن الحضن السوري الجامع لكل السوريين على اختلاف أديانهم وقومياتهم، ولم يتصوروا أنفسهم يوماً خارج هذا النسيج أو أصحاب امتيازات أقل أو أكثر من سواهم. كانت المواطنة السورية الجامعة، دوماً، هي السقف الذي ينشدون العيش تحته في وطن سورِيٍّ موحدٍ وكريمٍ وحرٍّ وحضاريٍّ.

لا يعول الدروز على حماية مزعومةٍ من أمريكا أو الاتحاد الأوروبي (أو حتى إسرائيل أو غيرها) ممن يتشدقون بحماية الأقليات. يرون أن

مصيرهم مرتبطٌ بمصير سوريا، ومن لم تحمِه موأطنته، لن يحميه أحد. ثانياً- من بيانات القوى الإسلامية المتطرفة دينياً (داعش وغيره) التي تعلن الجهاد على جميع من تعتبرهم مرتدّين عن الإسلام وفق معاييرها، الأمر الذي يثير مخاوف عالمية تطول الدروز كما تطول سواهم.

ثالثاً- مخاوف نابعة من فهم طبيعة النظام الذي يضحيّ بأيّ كان في سبيل بقائه. النظام الآن يستشرس في إيقاد الفتن بين الدروز (بين المحايدين الصامتين وعناصر الدفاع الوطنيّ التي انتشرت كالجراد في كل مكان، وأشهرت أسلحتها في وجه أهلها عند أيّ خلافٍ شخصي تافه)، وبينهم وبين البدو الذين يستوطنون الجبل مثلهم. يؤلّب ضعاف النفوس في كل فئّة ضد أخرى، ويجعل من هؤلاء جميعاً طعاماً لتكريس بقائه. وكذلك بين أهالي السويداء وجيرانهم في درعا، إلى أن تشتدّ الفتنة ويروح ضحيتها عشرات الأبرياء في كل حادثة، قبل أن يتدخل النظام ويتظاهر بفضّها ويظهر في المحصلة بطلاً منقذاً وضامناً للأمن، وهو يعرف تماماً أنها لم ولن تنطفئ قبل أن يشعلها وتعود الكرة من جديد.

الآن تتوارد الأخبار عن حشودٍ عسكريّةٍ إسلامية شرق محافظة السويداء على شريطها الحدوديّ الطويل الممتدّ من حدودها مع الأردن إلى شرق غوطة الشام. بعض المصادر تقول إنها قوى «داعش» التي ستنتقّص على أهالي السويداء (المرتدّين، الكفرة)، وبعضها يفنّد هذه المزاعم ويقول إنّه مجرد عبورٍ دوريّ للكتائب الإسلامية التي تدخل سوريا عبر الأردن، وتعتبر هذا الشريط الحدوديّ قاصدةً الغوطة أو أبعد منها للقتال في الشمال السوري، وبعضها يقول إنه لا وجود لقوى عسكريّة معتبرة، وإنما هذا الترويع مجرد شائعاتٍ يطلقها النظام

لتكريس رعب الأهالي من الخطر الإسلامي المرابط على حدود محافظتهم ليزدادوا التفافاً حوله وثقةً به.

لا أحد يعلم الحقيقة. فهذا الأمر يحتاج إلى استخبارات على مستوى دولة، بينما دأب الإعلام الرسمي السوري على تضليل المواطنين بأخبارٍ واهمة مقصودة، أو التعقيم الكامل على حقيقة الأخبار. إنما أياً تكن الأخبار، فإنها تنبئ بخطرٍ محتمل. مع ذلك سحب النظام في الشهرين الأخيرين 80 في المئة من قطعاته العسكرية المنتشرة في السويداء منذ أول الأزمة، ووزعها على جبهاته المشتعلة في درعا وريف دمشق وربما أبعده، في حين لا يزال أبناء السويداء العاملون في الجيش موزعين على الخطوط الأمامية في كل هذه الجبهات بعيداً عن جبهتهم التي رُحلت عنها دفاعات الجيش.

أخيراً يدرك أهالي السويداء أن النظام لن يحميهم إذا تعرضوا لخطر لا يعتبره خطراً عليه، وقد يبيعهم حين تفترق المصالح. وأن أبناءهم المجندين في الجيش العربي السوري لم يكونوا إلا وقوداً لحروبه، ويعرفون أن كل هذا السلاح الذي ورّعه النظام على أنصاره كان له هدفٌ وحيد: فقط لحماية النظام، ولن يُسمح باستخدامه لاستتباب أمن السويداء التي انفلتت فيها كيانات الدولة في العامين الأخيرين، ولا للدفاع عنها من خطر الإسلاميين المتطرفين. ولهم في هذا درسٌ قرؤوه في ما حصل في الجزيرة السورية وحلب حين احتلتها «دولة داعش»، فلم يطلق النظام تجاهها رصاصةً واحدةً ولا قذيفة هاون ولا قصف طائرات ولا براميل متفجرة، علماً أن في الجزيرة السورية وحدها سلّة قمح سوريا، وآبار نفطها الوحيدة، وثروتها المائية، ومنع طاقتها الكهربائية. فماذا قد يبذل من أجل محافظةٍ فقيرة كالسويداء لو كان الاحتفاظ بها سيكلفه ما لم يعد يطيق بعد أربع سنوات حرب؟!!

يدركون أيضاً أنه إذا سقط النظام فإن «قوى الدفاع الوطني»، التي اختيرت ممن يبيعون أهلهم لقاء حفنة مال، والتي تصرفت في الستين الأخيرتين كعصابات مرتقة؛ وحدها، وبمعاونة السلاح الهائل الذي بين أياديها كفيلاً أن ترحم البلد وتغرقه في بحر الدم.

للغرابية: ومع استطلاع رد فعل الأهالي الذين يستشعرون كل هذا الخطر، تبدو الثقة في قدرتهم على التصدي له كبيرة، على الرغم من أنهم لا يملكون خيارات كثيرة!

في الحقيقة هم لا يملكون أي خيار! يعرفون أنهم لن ينزحوا إذا استهدفوا! فهم أصحاب أرض وليس من عاداتهم النزوح عن أرضهم عبر تاريخهم. ثقتهم مستوحاة من أن هذا الخطر كفيلاً بنذ خلافاتهم وتوحيدهم، ومن أن معركتهم، لو اضطروا إليها، لن تكون أقل من معركة وجود إذا ما هوجموا في عقر دارهم. وثقتهم مستوحاة من عزيمة هذا الشباب الذي توارث من أسلافه نفوساً شجاعة ترخص الروح وترتمي إلى الموت من دون حساب، وتؤمن أن لكل منية أجلاً، وأن من العار أن يحيوا أذلاء أو يموتوا جبناء.

قد تبدو مقومات هذه الثقة ضعيفةً حيال خطر وجوديٍّ محتمل قد تُرصد للحرب عليه جيوشٌ وترسانات أسلحة. نعم. لكن لا خيار. هذا كل ما في الإمكان

واقع السويداء في أواخر عام 2015:

حال السويداء اليوم كالمنبت: لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

لا يبدو أنه على امتداد الجغرافيا السورية كلها وضع شبيه بما آل إليه وضع هذه المحافظة الجنوبية النائية بين حدود الأردن والصحراء،

ومن المضحك الإشارة إلى أنها صغيرةٌ وضعيفةٌ وفقيرةٌ، وليس لها من مقومات الدولة ولا حتى حدودها الدنيا. هذا في واقع الحال الذي تستقوي فيه الطائفية على الانتماء الوطني، وفي ظل استلاب المرجعية الدينية الدرزية، وعجزها عن حماية الأهالي كما يمكن لمرجعيات الطوائف الأخرى أن ترعى مجتمعاتها.

في الامتداد الشعبي الأفقي، لا يريد أهلها أن يغيروا قناعاتهم بأن: أيّ بديل أسوأ من النظام الحاليّ. فتغيير القناعات مُكَلِّفٌ، وهم ليسوا مستعدّين لتبعات التغيير. التسليم بقناعةٍ مريحةٍ للضمائر الخاملة أنّ النظام أفضل من داعش، هو أقلّ كلفةً بكثيرٍ من إعمال العقل. هذا التسليم يثلج الصدور ويوافق موضحة الحرب ضد الإرهاب، ويرسّخ في أذهانهم وحدهم أنهم منذ بداية الثورة كانوا على صواب في النأي بأنفسهم عن هذه المواجهة السيئة-العلوية. وحتى بعد أن صارت سوريا ساحة لإنجاز الصراعات الإقليمية والدولية واحترق البلد حقاً ولم يرحل الأسد، فهم حتى الآن لا يريدون أن يقتنعوا بأن أحداً من السوريين لن ينجو، وإن نجت فرقةٌ ما من شدة الزلزال، فلن تنجو أبداً من ارتداداته.

على امتداد المحافظة فلتان، أيام حشرٍ تتكرر ولا تنتهي، الناس مستنزفون بتأمين الرغيف (حتى هذا الرغيف صار ينضج على طعم الخميرة الإيرانية، وكأن لا خميرة وطنية قادرة على أن تشبع الناس)، ندرة الأدوية، وحلول الأدوية الإيرانية مكان المفقودة، طوابير الدور على المحروقات، الغلاء الصاروخيّ مقارنةً بالدخل الركيك، بل المزري، لعامة الناس، الكهرباء المقطوعة التي أقطع من انقطاعها أن تأتي الفواتير جهنميّة، قد تساوي الواحدة منها راتب موظف حكوميّ متوسط، مع أنه ينشغل طوال الوقت بتقنين مصروفه من الضوء والدفء

والرفاهية، ولا يسمح بالسؤال لماذا؟ ولا يشفع الاعتراض بتأخير تسميع العداد وقطع التيار عمّن لم يستطع الدفع، ثم إن التيار يأتي شديد الضعف، فتحترق اللمبات والأجهزة والوصلات مع كل وصلٍ وفصل، ينكفئ الناس في بيوتهم مع حلول الظلمة، لا أمان إلا في البيت، ولا يسمح أفراد البيت الواحد لأنفسهم بالخروج منه جميعاً، على أحدهم أن يبقى فيه لحراسته من مشروع سرقة قائم في كل وقت. وفي البيت بردٌ في الشتاء وحرٌّ في الصيف، لكنه أفضل من الخيام ومن العراء. هكذا يعزّون أنفسهم، وتستمرّ حيواتهم الأقرب إلى شدّاتٍ متتاليةٍ ومتظافرةٍ بحيث يدوخ الشخص قبل أن يحسم أي الشدّات أكثر خطراً عليه من غيرها، هذا قبل الحديث عن الجوع، لم تعد نكتةً أن يقول الأب لابنه: أنت أكلت أمس، اليوم دور باقي إخوتك.

إنه زمن شدّاذ البلد، الذين صاروا أعلاماً تعلق فوق رقاب الخلوّين. الأوادم انزروا في بيوتهم احتراماً للمقولة الثمينة: هؤلاء لا يمكننا مواجهتهم، (يستندون في سلوكياتهم الوسخة على شرفنا نحن وقلّة شرفهم...) عرباتٌ غزت الساحات والطرق الرئيسة فلم تترك حيزاً لتمرّ فيه سيارة صغيرة من غير أن تصطدم بحافات العربات، أماكن بيع الحشيشة وتعاطيها صارت معلومة لكل راغب، الطرقات والأزقة الفرعية والمحلات التي افتتحت حديثاً من أجلها عامرة بها، كذلك عشرات المقاهي المشبوهة التي لا تشبه واجهاتها المعتمة والمغلقة أكثر من بيوت الهوى غير المرخصة... هذا غير بيوت الهوى التي بضاعتها النازحات الغريبات عن المكان، والأمهات الجائعات هن وأبناؤهن اليتامى، المتروكون لأشنع مصير، وفي وصف كل ظاهرة يعلم الجميع أن ما خفي كان أعظم.

ضباط النظام حملوا عائلاتهم وغادروا إلى مدنهم الساحلية،

كتائب الجيش رُحلت من المحافظة منذ أكثر من عام، وأوكلت الحماية لجماعات الدفاع الوطني المتشردمة هي الأخرى، والمنشغلة بغنائمها «الحلال». هؤلاء لا يرضى واحدهم حصيلة يومه أقل من مئة ألف ليرة سورية ولا يرضى أن يدخن سوى المارلبورو (ثمان العلبة 800 ليرة يعجز عن تدخينها الطبيب أو المهندس أو أستاذ الجامعة...). رزقتهم من تهريب كل شيء. المازوت والبنزين من داعش في شرق المحافظة، إلى الإرهابيين في درعا... يبيعونهم تنكة المازوت بعشرين ألف ليرة كحد أدنى، وقد تصل إلى خمسين ألفاً، والرشاش على أكتافهم لم يوجّه يوماً إلى عدوّ، ويوجّه كثيراً إلى الإخوة وأبناء العم والجيران، بعد أي شجار تافه.

مالك إحدى الكازيات غدا مليونيراً من اتّجاره بالمحروقات وبيعها إلى الإرهابيين، وأضاف إليها تجارة السلاح منهم وإليهم وإلى الأهالي، ومكنته ثروته الطارئة، ولا ميزة سواها، من الارتقاء ليصير وجيهاً بارزاً وواحداً من أعضاء الوفد الدرزي الذي قصد إيران في زيارةً للتبرّك أو لأداء طقوس الولاء لمرجعياتها.

كل من حاول دخول المتحف الوطني واجه عند بابه منعاً من جنود لهجتهم علوية، يبادرونه بالقول: المتحف يخضع الآن للترميم... يقال إنّ مقتنياته صارت في طرطوس.

مخازن القمح أُفرغت وراحت إلى جهةٍ مجهولة.

شهادات موظفي المصارف جميعهم تقول إن المصرف المركزي طافحٌ بصناديق من العملة السوريّة الورقية المنكوبة في قيمتها الفعلية، لم يعودوا يعرفون كيف يمكن تكديسها أو إحصاؤها، وليس فيه ولو مئة دولار أو يورو حتى من الإبداعات الفردية لـ(المواطنين).

لا أحد يعلم من أين تفيض الأموال في هذه المدينة، ولا ماذا يراد لها أن تصير. تنبت فيها بناياتٌ جديدةٌ كالفطور السامة بين العشيّة والضحى، طوابق هائلة الارتفاع يؤكدون أنها محصّنة التخطيط ضد الزلازل والهزّات الأرضية. بنايات لا تزيد المدينة إلا قبحاً كأن عقلاً فائق الذكاء وحاقداً وخبيثاً يرسم لهذا البلد أشنع أشكال القبح... لا أحد يصدّق أنها مرخصة، ولا أحد يعلم ما إن كانت مرخصة حقاً أم لا... وهل تشرف البلدية حقاً على تخطيطها وتنفيذها؟! هذه البلدية التي لم تنجز، ولو من باب الحياء، أبسط مهامها في تنظيف الساحات الرئيسة من أوساخها أو تحرير مخالفة نظامية لخطأٍ مروريّ يقلع العين، لكنها تغزو المكاتب والبيوت لتأخذ جبايتها من الناس (بالصرماية وتكسير الرأس). ساحة المحافظة أمام مبنى السرايا (تنام في العسل)، أمامها حواجز الإسمنت بينها وبين الناس، وداخل الحواجز سياراتٌ مفيمة فيها أشباه بشر: عمالقة الأجسام، حليقو الرؤوس، لابسو المموه، يحرسون الوفود الغزيرة الوافدة من سائر الدوائر الحكومية للتهنئة بالأعياد البعثية. عناصر حزب الله السوريون أسياد شارع الشعرائي والحواجز في قلب المدينة، لكل واحدٍ منهم جماعته التامة الاستقلال عن غيرها. كلّ الحواجز لم تهدف إلا إلى أن تكون مرصداً لتسليم الشباب الفارين من خدمة العلم، ومن يُضبط يساق بمهانةٍ وبلا شفاعة، وكأنه عدوٌ شخصيٌّ لهذا الذي يسوقه.

داعش على امتداد الحدود الشرقية والشرقية الشمالية، والناس محشورون بين همجيتهم ووحشية الفروع الأمنية وسفالات الدفاع الوطني. حدثت عدة اشتباكات ترقى إلى صفة المعارك، الأهالي أعطوا إحداثيات المقاتلين الملتصين لفروع الأمن وللجان الدفاع الوطني. كلهم يقولون: لا أوامر بالاشتباك معهم، وحين دخلوا القرى لم يدافع

عنها سوى أبنائها، ماتوا ببساطة في معارك لن يكون لها أبداً أن تكون متكافئة. الكثرة غلبت الشجاعة، والسلاح الأثقل لا بد أن يغلب أسلحة الأهالي الفردية البائسة.

يحكى أن أحد الطيارين خرج من المطار العسكريّ بحمولة قذائفه ليقصف بها درعا، تواصل مع قيادته في طريق الذهاب، أخبرهم أنه يرى تحت مرماه تماماً رتلا سميناً للإرهابيين سيارات وحاملات مدافع تسير تحته، يمكنه أن يقصفها حتى الإبادة، ويبقى معه من الذخيرة ما يكفيه للوصول إلى درعا وقصف كامل الإحداثيات التي كُلف بتدميرها دون نقصان. أمره بعبارة واحدة: ما دخلك. كمل طريقك إلى مهمتك! لا علائق وثيقة وراسخة وكافيةً لتربط السويداء بحوران، لا أحد ينتبه إلى أن العمق الحقيقي للجبل يكمن في السهل الجار، هذا بحكم إحكام الطوق حول دمشق واحتمال إغلاق الطريق الذي يصلها بالسويداء، وفي ظل وحشية الحكومة التي بدأت بتجويد الناس قبل قصفهم، أو تفليت الدواعش الداخلين والخارجين عليهم.

قطع طريق الشام لثمانين وأربعين ساعة فقط كفيلاً بشلّ الحياة في الجبل.

وبعد أن هاجرت العقول، بعضها بوجه حقّ، وآخرون استغلوا الظرف ليحوزوا جنسية غربيّة محترمة... حمى الهجرة انتابت الجميع، فلم يبقَ سوى الفدائيين الذين اختاروا البقاء في البلد على الرغم من فظاعة الحال، وسوى الجموع المنكفئة على بؤسها وموتها الجماعي البطيء.

الجميع كامنون راضون بدور المتفرج، يغريهم الأمل أننا الفرقة الناجية، وأن هذه الأرض محروسة شخصياً من الله الذي ينحاز حتى

هذه اللحظة لنا، وما طال غيرنا لن يطولنا؛ نحن أصحاب «مرقد العنزة».

يتنادى الناس اليوم بكرامات المشايخ، يعرفون بالحدس أنهم وحيدون، فيلوذون إلى الإيمان بأن المشايخ مسلحون، وأنهم لن يتوانوا عن حماية الأرض والعرض في معارك مرتجلة يسقط فيها الرجال في مكانٍ ذكوره أقل من أن يحتملوا خساراتٍ قاسية في العدد. نداءاتٌ، استغاثات، تضرع: سلّحونا! سلّحونا! ترى هل يكفي السلاح في غياب أدنى استراتيجية أو حتى تكتيك؟! وكانت أصواتٌ خافتةٌ وخجولةٌ وحييةٌ وخائفةٌ، تعلو من حينٍ إلى حين، تكاد لا يسمعها سوى أصحابها؛ أننا صرنا في حالٍ خارج حسابات النظام وخارج حسابات المعارضة.

قد يظن أهلها، أخيراً، بعد أن (طلعوا خازقين من كل شي) أنه إن نجا أحدٌ من الزلزال السوريّ، فلن ينجو من ارتداداته. على امتداد التاريخ لم يختر أهالي الجبل سوى الانتماء للوطن السوري؛ يبدو أنهم غافلون اليوم عن أي رهان.

21. عن مقتل الشيخ البلعوس

إذا كان الموت اكتمالاً لسيرة كل حيٍّ، فالمجد للسوري الذي
هتف بفطرته الوطنية:

«أمتنا سوريا، وليس لدينا من بلد سواها».

الرحمة للشهداء، لجميع الشهداء. كل الخسارات أقلّ فظاعةً من
خسارة الإنسان.

كانوا يستحقّون يوم حداد. ومن قبلهم كان أقلّ ما يستحقه مئات
الآلاف من السوريين تحت التراب يوم حدادٍ وطنيٍّ.

مرارة الفقد بطعم دمهم، بطعم الألم، بطعم الأسى على ماتم لم
يكن على قدر الوجع، ولا على عدد الضحايا أيّاً كانت مكاتتهم، ولا
على ما يوافق موروثنا أننا قبيلة ماتم ونواح.

الناس مرعوبون من المجاهرة بالحزن. هذا الرعب يستلبهم اليوم،
للمرة الأولى، جماعةً لا فرادى.

ترى هل تنجح هذه (البروفا) في تعليمهم أنه ما من دمٍ هنا أعلى
ثمناً من دمٍ هناك؟!

اختار الكثيرون موقف التآني في تحديد هوية «رجال الكرامة»، وهوية زعيمهم الشيخ وحيد البلعوس. (نسبة المتدينين بينهم لا تتعدى الربع، والباقي أسماهم الشيخ «زمنيين» متجاوزاً التسمية القديمة: «جسمانيين»).

قدّم الشيخ البلعوس مشروعه من غير تنميق:

- لسنا موالاة ولا معارضة. نبغي الدفاع عن الكرامة والأرض والعرض من كلّ من يستبيحها أو يذلّ أهلها. «سوريا بلدنا، ما عنّا بلد غيرها»، «يا فوق الأرض بكرامة، يا تحت الأرض بكرامة».

- وجّه اتّهامه إلى مسؤولٍ أمّنيّ بمطاردة الشباب لإلحاقهم بالخدمة العسكرية، بأخذهم إلى الموت. قال في العلن: «المسؤولون ليسوا أعلى من أولادنا»!

- وقف رجاله في وجه الجيش حين بدأ بسحب عتاده من الجبل، وتركه لداعش التي كانت أصلاً تحت مرمى نيرانه الصامتة.

- أزر أهالي القرى الشرقية (الحقف والجنية مثلاً) في مواجهاتهم وحيدين مع داعش، حين لم يتدخل الجيش.

- ذنّب النظام بسرقة مخصصات المحافظة من الوقود، والسكوت على المهريين، وتقاسم الحصص معهم.

- وأخيراً في الاحتجاجات المطلية البحتة حول الخبز والكهرباء والمحروقات والغلاء، حين أمهل المتظاهرون المحافظ وسواه 48 ساعة لتلبية مطالبهم، ووعد الشيخ بحماية الشباب الغاضب.

كان الردّ بتفجيرين إرهابيين يكون الشيخ هدف الأول منهما، وجماعته هدف الثاني، وكل البشر الذين سيموتون أمام المشفى الوطني (سقط متاع). وكان ردّ المحافظ الأول: «نتهم إسرائيل».

لكنّ توجّه الناس الفوريّ والعفويّ نحو الفروع الأمنية والساحة العامة وإزالة تمثال الرئيس الراحل، يعني برمزيته أنّ هؤلاء يعرفون عدوّهم.

لن نجمل صورة الواقع. الناس مرعوبون. ردود الفعل تراوحت بين التصديق أو عدم التصديق الذي تتبعه (لكن...). ما يأتي بعد هذه الـ(لكن) هو المصيبة: حتى وإن كانوا يكذبون فعلينا أن نصدّقهم درأاً للفتنة. (وللمناسبة؛ يجهل معظم أهالي السويداء ماذا تعني، بالضبط، مصطلحات يردّها الجميع كل يوم عشرات المرات، منها: «الإرهابيون»، «المسلحون»، «الأمن»، «الأمان»، «الفتنة»....). ألم تكن «الفتنة» حين أخرجت مواقف الشيخ مشايخ العقل، وجعلتهم يخشون على امتيازاتهم الاجتماعية والسياسية، فبادروا إلى إبعاده عن دينه، ما يعني، لمن لم يفهم، رفع الغطاء عنه وهدر دمه، علماً أن مطالبه جميعها لم تخرج عن سقف الدين ولا الوطنية. في حين لم يرفع المشايخ الحرم في وجه من ثبت حقاً تورطهم العميق في الدم السوري؟!!

وخلال أقل من يومين نُسب مقتله (في توليفة لا تنطلي على عقل عصفور) إلى إرهابي محليّ (درزيّ) قالوا إنّهُ ينتمي إلى جبهة النصرة. وأكثر من ذلك: أليست «الفتنة» أن يرتاح الناس لأنّ (القاتل) منا وفيّنا؛ أليست هذه «الفتنة» أن يسمّي القاتل دسّته من أسماء الشباب، خيرة الشباب، (من الجنيّة وغيرها)، ممن يواجهون داعش وحيدين إلا من إيمانهم بالدفاع عن وجودهم، فيبرر للأمن اعتقالهم كـ(إرهابيين)، وتغييبهم واحداً واحداً، بمباركة شعبية، لإرساء (الأمن والأمان)؟!!

وإن كان الإعلام قدّم الشيخ على أنه معارضة، فلكي يزيد خوف الخائفين، ولكي يضعف ثقة الشارع الذي يريد لهذا البلد أن يبقى (بأمن وأمان)، من مبدأ: (ما تمت، بس شفت مين مات). و(الكحل أهون من العمى). سيغطي الشمس بغربالٍ، فذلك خيرٌ من أن يجبر نفسه على التفكير، وهو ما حصل.

لا تبدو مأمولةً وحدة الصف في وجه القاتل، سيظل الناس على خلافٍ في موقفهم من النظام. أضعف الإيمان أن نُبقي لأنفسنا شرف أعمال العقل ورفض التغيير بنا وتصغيرنا وتسفيه عقولنا. علينا أن نستوعب أن مصير السويداء مرتبطٌ بمصير سوريا. وأنها، كباقي المدن السورية، ليست معصومةً عن العقاب حتى وإن كان تمللها لمجرد المطالبة بالخبز والضوء.

لنطالب كلنا مشايخ العقل بمسؤولياتهم. نعرف مخاوفهم ونظّل نطالبهم. نعرف سقف المرجو منهم ونظّل نطالبهم. لنضغط عليهم أن يتحملوا مسؤولياتهم، يحموا رعيّتهم (والرعية هنا كل أبناء السويداء على اختلاف طوائفهم)، أن يدروا «الفتنة» حين يضعون أنفسهم على مسافة واحدة من الجميع. أن ينتصروا لأبناء البلد، لا لامتيازاتهم، أن ينادوا في الناس بالكفّ عن حمى الهجرة كي لا تفرغ البلاد من عقلائها.

لنناشد الشرفاء من بين جماعة الدفاع الوطني. لا بدّ من أنّ بينهم شرفاء وأبناء بلد، لنهض الوجه الجميل فيهم، وكذلك في التجار الذين عليهم أن يتقوا الله في أهلهم، وكذلك النقابات والدوائر الرسمية والزعامات الاجتماعية، وفي كل فردٍ يحمل روح المبادرة.

حينئذٍ قد يمكننا الأمل بحماية أبناء البلد من الاقتتال، وحماية البلد
من الفلتان.

نعلم أن مصير سوريا رهناً بلعبة الكبار، لكننا، نحن - أبناءها -
نحتفظ بشرف المحاولة. نحتفظ لأنفسنا الآن ببضعة مطالب مرحلية،
على ألا ننسى أننا نريد سوريا الواحدة، سوريا الكرامة والقانون والعدالة
للجميع.

أيلول 2015

22. أمكنة تحرس الحياة

أخيراً صارت «س» هنا، في دار الرعاية الاجتماعية. جاءت إليها بجسد طفلةٍ عمرها 12 سنة، وباختبارٍ عسيرٍ شلح عنها طفولتها، وأرجأ إعادتها إليه حتى أوان النسيان أو التناسي. أسألها: كيف حالك يا «س»؟ تتطلع إليّ بصمتٍ ناطق. لا تحيد نظرتها عني وهي تجيبني بسؤال: ومن أين تعرفين اسمي؟! تتابع «س» بعد قليل: أو ربما... ربما رأيتك من قبل، ذكّرني أين؟! عيناى أيضاً ترصدان ذاكرتها الفتية التي لم تلحق أن تنسى أسباب زياراتها العديدة والطويلة والموجعة إلى عيادتي. ذاكرة «س» تستنفر الآن بكامل شراستها لتنساني، لكيلا أعيد إلى رأسها الرعب الذي جعل المرشدة النفسية في مدرستها تأتي بها إلى عيادتي. كان والدها يستثمرها كشريكةٍ كلّ ليلةٍ منذ بلغت عامها العاشر. ظلت «س» طويلاً لا تشكو أباهاً لأحد، ولا حتى لأخيها الأكبر منها. لم تشكُ لعمّتها طقوس أبيها الليلية معها إلا بعد عامين؛ حين جلب، هذا الأب، إلى البيت امرأةً ليلٍ أشعلت الغيرة في صدر الطفلة التي تفتحت قبل أوانها، وغرقت في عشق أبيها - مغتصبها (الذي تصرّ «س» أنه لم يكن عنيفاً معها، بل كان في غاية الرقة). تداولت العمّة والمرشدة النفسية أمر «س» التي كانت أمها قد تزوجت بعد طلاقها

من أبيها، ولم يعد أبوها مؤتمناً على تربيتها، وليس من بين أقاربها من يمكنه استضافتها للسكن في بيته، وتوصلنا إلى نقلها من بيت أبيها إلى هذه الدار.

تأسست دار الرعاية عام 1947 بجهود «عارف النكدي» حين كان محافظاً للسويداء وحاكماً عسكرياً فيها. وتقع اليوم على طريق قنوات، في واحدٍ من أجمل الأماكن في مدينة السويداء، المطلّ على سفوح السنديان الباقي فيها.

عارف النكدي وحده حكاية. هذا الخطيب الثائر. هذا الاسم الذي ما ذكر يوماً إلا رديفاً للثقافة العميقة، وللوطنية النظيفة بعيداً عن الغايات الشخصية أو السياسات والأحزاب. هو ابن جبل لبنان الذي أنجب جيلاً من كبار المفكرين والأدباء أمثال كمال جنبلاط وشكيب أرسلان. جيلاً جمع في نضاله، من غير نشازٍ، بين الخصوصية الوطنية وشمولية القومية، وأثر الخوض في المسألة الأصب: مسألة الإصلاح الاجتماعي، التي كان تأسيس «بيت اليتيم» إحدى مهماتها. الفكرة أتته من تتبع حال المضافات في السويداء، حال الكرم في غير مكانه، الكرم الأصيل الذي قرّر أن يستثمره، بعقله الاستثنائي، بأصالةٍ أيضاً. فقد رأى وجهاء السويداء ومقتدريها يتسابقون إلى دعوته إلى مآدب الغداء. صار يبادر إلى شكر كلّ منهم على دعوته الكريمة ثم يسأله: وكم ستنحر من الذبائح لإكرامي؟! يرتبك الوجيه، ولا يجد مناصاً من الإجابة: لن أستكثر على ضيافتك خمس ذبائح أو أكثر يا بيك! حينئذٍ يجيب عارف النكدي: هات ثمنها إذاً وأجزل الله عطاءك! واعتبرني زرتك، وأكلت في مضافتك وحمدت الله وتشاركنا في فعل الخير.

كان اسم الدار «بيت اليتيم». ثم تغيّر ليصير: «دار الرعاية

الاجتماعية»، التي تعاقبت عليها منذ تأسيسها إلى اليوم عشرون إدارة، كلها اشتغلت، كلها شهدت صعوداً وانتكاساً، إخفاقاتٍ ونجاحاتٍ، إلى أن صارت اليوم بيتاً وملجأً ومأوىً لليتيم والمحتاج والمعوز والعاجز، ولذوي الحالات الاجتماعية الصعبة. عدد نزلائها اليوم نحو 100. ثلاثة أرباعهم أطفالٌ ومراهقون، والباقي من ذوي الاحتياجات الخاصة والعجزة. تستقبل الدار الأطفال من عمر 6 سنوات، حتى التخرج في المدرسة أو المعهد أو الجامعة. تجد هنا أيتاماً مات أحد أبويهم، وأيتاماً ما زال أهلهم على قيد العيش، لا الإنسانية. هنا أيضاً مجهولو النسب (آباؤهم معلومون لكنهم لا يعترفون بهم) الذين يشتغل محامو الدار على تثبيت نسبهم. وهنا العجزة الذين لم يُطَقْ أهلهم رعايتهم، أو لم يستطيعوا، أو هاجر أهلهم خارج البلاد. (هنا أيضاً يقيم حفيد عارف النكدي الآن في الدار وحيداً، منكفئاً على ذهنه المنفصم عن هذا العالم).

جولةٌ في الدار:

مكتب الإدارة ليس على فخامة. تعبر منه إلى قاعة فيها (طواطي) - مصاطب مفروشة بألوان جبلية. على جدارها صورة عارف النكدي، وصورة مشايخ العقل الثلاثة، وصور بعض المحسنين. دعارئيس الهيئة الإدارية مشايخ العقل إلى الدار ليشرکہم في مسؤولياتها. من هذه القاعة زُفَّتْ أربع عرائس يتيمات إلى بيت الزوجية نابت فيها الإدارة عن أهل العروس في تنظيم حقوق الفتاة أولاً، ثم تكاليف عرسها. في الطابق الثاني قاعة القراءة. فيها 13 (كومبيوتراً) ومكتبة متواضعة وخزائن جدارية شخصية للطلاب. هنا تجري الدروس الخصوصية التي يتكفل بعض الأساتذة بها طوعاً، أو تدفع الدار لهم الأجور. البناء التالي كان

حتى مدة قصيرة مأوى للأحداث الجانحين. تم ترحيلهم إلى السجن المدني، لمنع اختلاطهم بالياfeين هنا. في أجنحة السكن لا تشعر أن وطأة اليتيم تحضر كل لحظة. غرف الشباب نظيفة كما غرف البنات. لا يسمح لأحدهم أن يغادر إلى مدرسته قبل أن يرتب سريره وخزائنه. في الخزائن أشياء وهم الشخصية القليلة، وصور أبطالهم المحبوبين من نجوم كرة القدم أو نجوم الفن. يقيم المشرفون هنا مع الأولاد في الدار، ولا يغادرون إلا في إجازات رسمية. لا يُخشى من سرقة الأغراض لأن الأولاد يتربون على المحبة والأمانة. المطبخ خالٍ من روائح الزنخة. طعامهم هنا جماعيّ: مشرفين ونزلاء. غداؤهم اليوم شوربة عدس وسلق وبجانها الخبز المحمص. هذه الحلة الضخمة ستغذي الجميع. الطباخات منهمكات في العمل برضا، يغطّين رؤوسهن بمناديل بيضاء معقودة إلى الخلف. الغاز والفرن نظيفان. في براد اللحم ثلاث ذبائح. حين تصلهم هبات كثيرة في وقت واحد تستبدل بها الإدارة من السوق السمك أو الدجاج. بعض الأولاد لا يحبّون اللحم. صارت الإدارة تتحايل عليهم بإدخال اللحم المطحون في اليخانات أو في أطباق الحبوب. مبنى البنات شديد الخصوصية. فيه صالة كبيرة للدرس والتلفزيون والسهر الجماعي. غرف البنات نظيفة جداً، وكذلك خزائنهنّ. كل خزانة حكاية. كم قليلة أغراض هؤلاء البنات الناميات بسرعة! صور المطربين الذين يحببن، صور الأهل البعيدين أو الميتين، ألعاب كثيرة ومدللة يشترينها من مصروف الجيب الذي تمنحه الإدارة لكل بنت، أعلام سورية مكتوبٌ عليها: «بحب سوريا وبس». عوالم وأسرار... في خزانة عبير صندوق خشبي صغير من خشب ثمين عليه شعار فندق فاخر، سألتها: من أين لك هذا الصندوق الجميل يا عبير؟ ارتبكت كأنها ضُبطت في اقتراء ذنبٍ شائن. أجابت: هدية ابنة

خالتي من أمريكا. (سيأسف الصندوق لو كانت له عينٌ داخلية ترى ما خبأته عبير فيه: ربطات شعر من صوفٍ شبه تالف، ودبابيس شعرٍ انمحي طلاؤها الأسود، ومحرمَةٌ ورقية ملونة من تلك المحارم التي تُوضع بجانب صحون الفاكهة في ضيافة بيوت الأغنياء، وصورة لأمها وخالتها وابنة خالتها).

بناء المسنين أبعد قليلاً. يقيمون على الطابق الأرضي. الكثير منهم تحت رحمة الزهايمر. سيدات يقضين الوقت هنا غائبات عن الدنيا. السيدة التي تجلس في سريرها محفوفة بأمراضها لم تسألني شيئاً عن نفسها. طلبت مني أن أقرب منها لتسرّ في أذني أن جارتها المسكينة تنزف. لا تعرف هذه السيدة القراءة والكتابة. لن تقرأ أبداً العبارة التي كتبها، ربما، نزيلٌ قديم كان هنا: «لا تكسروا قلوب الطيبين». هنا أيضاً شاباتٌ لم تمنعهن الإعاقة الجسدية من الحياكة أو التطريز أو الرسم. ربما عرضت علينا لوحاتها الجميلة بكل فخر. ضحكته كانت امتداداً للوحاتها.

في الفناء بين مبنى المعيشة والمستودع أقيم سياج تسرح خلفه خمسون دجاجة. فكرة تربية الدجاج جاءت كي لا تُرمى بقايا الطعام في الزبالة، قبل التفكير بالبيض الذي ستمنحه الدجاجات. كل ما هنا يوحي أنك في مؤسسة تستثمر العقل في ما خُلق من أجله. في المستودع كراتين طافحة بالحبوب. تنكاتٌ كثيرةٌ من دبس التفاح. وصلت إلى الدار 400 صندوق تفاح كهباتٍ من أصحاب الكروم. تركت الإدارة 100 صندوق للأكل، والباقي الذي لا يصمد إلى الشتاء راح إلى المعصرة. بالطريقة نفسها أتت حوالي 60 تنكة زيت الزيتون من المعصرة. مستودع الثياب مقسّم إلى صفوف ورفوف. الثياب موزعة عليها وفق الأعمار والفصول. أي لباسٍ لا يناسب مقاسه أحداً

من النزلاء يستبدل به من متاجر السوق آخر مناسباً. كل قطعة ثياب تنال من الحرص والطيّ والترتيب كما لو أنها في خزانة سيده أنيقة. بجانب المستودع مخزن للخردة التالفة التي يمكن تدويرها حين الحاجة. أما ما لن يلزم لاحقاً من هذه الخردة، فقد تمّ بيعه وأعاد إلى الدار 130000 ليرة. في ساحة الدار حديقةً فسيحةً وملعب نظامي لكرة القدم والكرة الطائرة. الأرض الكبيرة التي كانت مكباً لنفايات الدار صارت بستاناً. في البستان زرعت الإدارة عشر ديارات عنب، حين ستنمو بعد عامين أو أكثر، ستوفر في العام 30 ألف ليرة ثمن ورق العنب للبيرق (الينجي)، فضلاً عن ثمرة العنب المباركة، وعشر شجرات رمان ومثلها شجرات تين ستصدّ ربح الغرب عن سور الدار، ومساكب للخس والهندباء والنعناع والرشاد والبقدونس والبصل والبندورة، والأعشاب الطبية من إكليل الجبل والمليسة والحبق والعطرة والحنبلاس. كل الشتول جلبها رئيس الهيئة الإدارية من بيته وعرّشت هنا. حب المكان يصنع معجزة. يجعل مكبّ النفايات حديقةً خضراء محروسةً بالحب والأيدي. يقول رئيس الهيئة: على الأقل سيتعرف الأولاد على الأعشاب الطبية والخضرة والأشجار المنزلية.

هناك بناء إضافي لا تحتاجه الدار افتتحت له بوابة جانبية وتم تأجيرها لصاحب معهد فندقة خاص يدرّ دخلاً سنوياً معتبراً. فيه أيضاً مكتب للسفارة اليابانية التي تقدم المساعدات وبرامج المشاريع الإنمائية.

موارد الدار:

تحتاج الدار ما بين رواتب موظفين، وفواتير خدماتٍ ومشتريات، ومعيشة الطلاب، ومصاريف جيوبهم، والعناية بالمباني حوالي: 1.5 مليون ليرة شهرياً. المصدر الرئيس من الهبات والتبرعات من أهل

المدينة أو المهاجرين منها، ومن المشاريع الاقتصادية الصغيرة التي ذكر بعضها، إضافة إلى أجور مبنين يقعان على مساحة 5 كم مربع في قلب المدينة، كان المرحوم عارف النكدي قد خصّ الدار بهما منذ أسسها، وهما مؤجّران لصالحها بعقود أجورٍ قديمة يجري الآن إعادة تخمينها عبر معاركٍ عسيرة مع الإدارات الحكومية التي تحاول التملص من دفع الإيجارات وفق ما صارت عليه الأسعار. وقد انتهوا منذ أيام باستقدام جدران مسبقة الصنع لتؤجّر كدكاكين بيع على الطريق المحاذي للدار. (كان في الساحة مجموعة عمالٍ يجبلون الباطون لصبّ أرضية الدكاكين. تطوعوا بجهد أيديهم كي يرثوا للدار بعض دينها. فالدار زفّت عروس أحدهم إليه، يعني أنها بيت نسبه، واستقبلت قريب عاملٍ آخر...). وهناك قطعنا أرضٍ استراتيجيتان ستجنز فيهما مشاريع بناء تعود على الدار بفرص عملٍ لأبنائها، ومشاريع استثمارية فيها تأتي بدخلٍ جديد. هناك أيضاً موردٌ رائع بقدر ما هو إنساني: بعض أبناء الدار لا يغادرها بعد أن يتخرج لأنه ألفها أولاً، ولأنه لا بيت آخر له ثانياً. في هذه الحالة يجري الاتفاق معه/ معها على اقتطاع جزء من دخله لصندوق الدار ومتابعة حياته فيها ريثما يطرأ على حياته/ حياتها أي جديد.

ما هي مشكلات الدار؟ يقول رئيس الهيئة: نشعر بمرارة العجز حين تفشل كل وسائلنا الممكنة في تقويم سلوك أحد النزلاء، أو رده عن ارتكاب الكبائر، نضطر حينئذٍ إلى فصله وطرده من الدار، كي لا ينتقل سلوكه بالعدوى السريعة إلى باقي النزلاء.

لم يكن المال ينقص الدار يوماً كي تنهض على أفضل حال. كانت تنقصها العقلية الاقتصادية والنزيلة والخلاقة التي لن تنجز الدار مهماتها إلا إذا توفرت كلها معاً. الأمر الذي يبدو أنه يتوفر في إدارتها

الحالية التي تشتغل على بناء الإنسان في هؤلاء الأولاد، وتأخذهم من التشرّد إلى الاحتواء في منظومةٍ أسريةٍ تطمع الإدارة أن يرتقي إلى دفء الأسرة البيولوجية. (كم يفرح الطفل مثلاً ببسكوتهِ وسندويشهِ تلقَّها له المشرفة كل صباح، إضافةً إلى مصروف الجيب «الخرجية» إلى المدرسة؟! هنا لا يغفلون عن هذا!).

بدأت الهيئة الجديدة عملها بتغيير الكوادر الاعتيادية والكسولة القديمة، واستقدام طاقاتٍ شابةٍ وحديثةٍ التخرج في الجامعات والمعاهد وفق التخصصات التربوية التي تحتاجها الدار. أشرفت هذه الكوادر على توزيع أبناء الدار على المدارس القريبة، وظلّت تتابع بتوجيهٍ شخصيٍّ من رئيس الهيئة أمور دراستهم وسلوكهم من كتب مع إدارة المدارس عبر زياراتٍ أسبوعية، إضافةً إلى متابعة دراستهم في الدار كل مساء. هذه المتابعة خلقت بين هؤلاء الطلاب متفوقين ورواداً، في حين كان كثيرون منهم من قبل عبئاً على المدارس، وعلى المجتمع، لسوء أدائهم المدرسي، والاجتماعي.

أخيراً: لم أدوّن هنا سوى مشاهداتٍ طبيعيةٍ لا دهشة فيها. فهذه ليست أول مرةٍ أزور فيها هذه الدار. ولكنها زيارتي الأولى التي لم يؤلمني قلبي وأنا أجول في أبنيتها... دهشتي كانت من الفرق الجلبي بين ما كانت عليه هذه المؤسسة منذ زمنٍ قريب، وكيف استطاعت أن تصير مدينةً مأهولةً بالضماير، في الوقت الذي لا يجهل فيه أحدٌ حال بلدنا اليوم. أكتبه لنعلم جميعاً أنه ثمة بؤرٌ حيةٌ لا تزال تحرس ما بقي من البلاد، أمكنةٌ تحكي كيف يُبنى الوطن، فيما إذا توفرت الرغبة والإرادة، وتوفرت طاقة الحب.

17 أيار 2014

23. ستكون سورياً أو ستصمت

1- عن إيران

لا تعرفني د. آذر نفيسي، (أستاذة الأدب الإنكليزي في جامعات طهران ولاحقاً في جامعات أمريكا). وأنا؛ منذ عرفتُها، أخطُّ لها في رأسي كلَّ يومٍ عباراتٍ طيبة:

د. آذر: حطَّتُ كتبك في أرضنا، وقرأتك بحبِّ، وغيَّرتِ حالي وحالَ مَنْ قرأك. كتبك قافلةٌ محبِّةٌ وجمال. فيها المعلومة، وكشف المستور، والقدرة على الإقناع وعلى زعزعة بعض اليقينيَّات القديمة.

سأخبرك د. آذر: كانت المدرسة علَّمتنا أن نكره الإمبراطورية الفارسية. واليوم، بعد قراءتي كتابيك «أشياء كنتُ ساكتةً عنها»، و«أن تقرأ لوليتا في طهران»؛ ربما يلزمني الاعتذار عن إساءة أجدادي العرب لحضارتك الزردشتية. معك وجدُّتني أعود إلى الماضي، الماضي الذي لا يموت، أقرأ تاريخي بعيون (أعدائي)، وأستوعب لماذا يرانا الفرس برابرة، ولماذا لن تعنيهم مثلاً عدالةُ الخليفة عمر بن الخطاب، ولن تشفع له عندهم، ما دام قد أمر بإتلاف تراثهم المكتوب لأنهم لن يحتاجوا، بعد إسلامهم، أيَّ كتابٍ سوى القرآن.

يحق لك الفخر بـ(رستم) و(سوهراب) و(أفريدون) الذين أنقذ
شاعرُكم الفردوسيَّ في كتابه (الشاهنامه) بعضَ ملامحهم من حرائق
العرب، مثلما يحقُّ لي الحنين إلى كل كتابٍ لم يصل إلى أبناء جيلي،
بعد أن أغرقه هولوكو في نهر دجلة.

وأيضاً: علّمتنا المدرسة أن نصفّق للثورة الإسلامية الإيرانية لأنها
هتفت: الموتُ لأمريكا! وأنا تدرّجتُ معك في التاريخ المعاصر لبلاد
الفرس التي صار اسمها إيران في أواسط القرن العشرين، إيران الحريّات
والبرلمان والانفتاح والانطلاق واستقلالية المرأة والصالونات الثقافية
وتعددية الرأي، إلى تنامي دكتاتورية الشاه، وثورة العلمانيين ضده،
وسرقة الثورة من قبل الخميني وأتباعه، والجحيم الذي آلت إليه
بعد استتباب حكم الجمهورية الإسلامية الإيرانية. حكومةٌ تهتف:
الموت لأمريكا، ولا تُميتُ سوى شعبها: تكّم الأفواه، وتغلّف المرأة
بالجلباب، ويتعفن الأحرار في السجون، ويُجبر التاجر الأقلوي أن
يكتب على واجهة متجره: (أقلية دينية)، ويُغتال أصحاب الفكر من
على منابرهم أو في بيوتهم أو وهم عائدون إلى أطفالهم، ويفرّ الناجون
من الاغتيال إلى المنافي.

عزيزتي د. آذر: ليس عليك أن تعتذري عن حكومتك التي تُنكّل
الآن بشعبي، فقد نكّلتُ بكم من قبل، والطغاة طغاةٌ على شعبهم كما
على باقي الشعوب.

2- عن أفغانستان

صورة أفغانستان في ذاكرتي المدرسية: بلاد قصية في شرق آسيا،
فيها خضرةٌ وجبال ومغاور كثيرة، بلدٌ مسلم يحفظ أبناؤه القرآن غيباً

ويلتغون بحروفه المنقوشة كرسوم أجنبية بهيئة ومقدسة. وشعب أفغانستان في ذهني قبائل بدائية، رجالها أميون، حفاة، أجلاف، قساة، ذكوريون، يرتدون العمامة والدشداشة القصيرة، ويطلقون لحاهم، ولا يغتسلون. ونساؤهم أدنى من مرتبة الأدميين.

في أيلول (سبتمبر) 2001، بخطاب منمّق، توعدّ الرئيس الأمريكي بوش الابن بضرب معاقل الإرهاب في أفغانستان، في البلد الذي يصفه بـ: الخالي من العقول، والذي لا يعرف أهله ما هو التلفزيون، ولا تعرف نساؤه المدارس، وتُجلد المرأة إذا ظهر كاحلها.

لكنك حين تقرأ كتب خالد حسيني وعتيق رحيمي وحنيف قرشي وسواهم من أدباء أفغانستان، تتفتح براعم ملوّنة في رأسك: يقدّمون إليك أفغانستان أخرى فيها حضارة وعلم وأدب، وبشر راقون وطموحون ومحبّون لبلادهم. ولا يسعك إلا أن تراهم عشباً عنيداً يشقّ طريقه بين شقوق هذا العالم الصخريّ.

ذلك المشهد في رواية «عداء الطائرة الورقية»، للكاتب الأفغاني خالد حسيني: يمرض بابا جان، الأفغاني المهاجر إلى أمريكا بعد الغزو السوفييتي، ولاحقاً الطالباني، لبلاده، يروح إلى المشفى بحالٍ شديدة السوء. وما إن يعرف أنّ الطبيب الذي يفحصه من أصلٍ روسيّ، حتى يدفع بيديه هذا الطبيب بعنف، ويغادر المشفى. يحتجّ ابنه أمير: يا بابا: لقد ولد هذا الطبيب في متشغان، إنه أمريكيّ أكثر مما سنصبح عليه أنا وأنت يوماً! ويحجب الأب: «إنه روسيّ»، يلفظ الكلمة مكشراً كأنها كلمةٌ بذئثة، «أهله روس، أجداده روس، أقسم برأس أمك أنني سأكسر ذراعه إن حاول لمسي».

لن تنسى ذاكرة بابا جان جرحها المفتوح، لم تلحق أن تنسى وقاحة

الجنود السوفيت في بلده. لن يثق بطبيبٍ تعود أصوله إلى بلدٍ عدوٍّ، على الرغم من أن هذا الطبيب قد يكون ماهراً ومسالماً، وقد يكون مثله ضحيةً لسياسة حكومته أو حكومة أسلافه.

3- عَنَّا هُنَا...

ربما لا ينظر (الآخرون) أيّاً كانوا، إلينا كسوريين أفضل مما كنتُ أرى أفغانستان. ربما نحن في أنظارهم: «عربٌ جرب، فقراء، همجٌ، جهلةٌ، غفلةٌ، يدبّون على الأرض بهندامٍ مريبٍ وعقلٍ معطلٍ... وتضاف إلينا الآن التهمة المعاصرة: إرهابيون!»!

والواقع أننا نسمع ونعي ما يقال عنا، ونقرّوناً في عيون من يجهلوننا، أو من يسيئون إلينا عامدين. وقد نرفض فنغضب، وقد نصدّق فنغور في اليأس، وقد نأمل منهم أن يتكرّموا ويفهموا حالنا، أو أن يبادروا، هكذا لوجه الله، لإعلاننا شعباً كريماً إنما مسلوب الإرادة.

والواقع أن السياسة مجرمة صعوداً وامتداداً وعمقاً؛ صعوداً حين تستعبد الحكومات القوية شعوباً ضعيفة. وامتداداً حين يُجبر هذا الشعب المُهان على كُره شعوب الحكومات القوية، وعمقاً حين تتوارث الشعوب كراهية بعضها جيلاً بعد جيل.

والواقع أن الشعوب دوماً أجمل من حكامها، وحين يخرب الطغاة العلاقة بين الشعوب، فعلى الأدب أن يعيد للإنسان اعتباره، وأن يستثمر خطر الثقافة الذي لا يخشاه أحدٌ كما الطغاة، وأن تكفر الكتابة عن ضلال السياسات.

كتابٌ جيّدٌ نقرّوه أو نكتبه يُكسبنا شعباً نلاقه أو يلاقينا، يفتح مغالِق القلب، ويقرب الثقافات، ويفتح بينها باباً للفهم، لتبديد

العداوة، لتقريب المسافة، وقد ينقل كتابٌ شعباً من خانة العدو إلى خانة الصديق.

نكتب الآن عن حالنا السوري، حيث دمننا يسيل كقناةٍ رخيصة، وحيث قلوبنا في القاع، وحيث يشحطنا الإحباط إلى تكريس صورة الضحية الخائفة، وحيث تطفو أحقادنا فلا يعلو من أصواتنا سوى الهمجيّ والمتطرّف والشاكي والنادب والمعاق وتاجر الحرب والشبيح والداعشيّ.

لكنّ بيننا غير هؤلاء، ممّن يستحقّون أن تُسمع أصواتهم عاليةً وساطعةً وجميلةً وحقيقيةً كما هم أهلنا.

وأنت تكتب؛ لا تنتظر من الآخرين أن يبرئوا سجلاتك المدانة. ستحتسب أن بين يديك أمانة شعبٍ تكتب عنه، وشعبٍ آخر ينتظر صوتك ليفهمك.

صوتٌ ساطعٌ واحدٌ بيننا يساوي ألف صوت، ومقالٌ واحدٌ موضوعيٌّ ومنطقيٌّ يساوي جولةً رابحةً في حروبٍ لن تتوقف. ستكتب كأنك الوحيد الذي يستطيع، وكأنها فرصتك الوحيدة والأخيرة.

ليس في وسعك أن تخطو فوق مأساتك، لكن في وسعك أن تعمّمها على الإنسان في كل مكان، ستكتب حزنك الإنساني بما يبعث الآخر على فهمه لا على الرثاء لحالك.

ستكون أنت؛ حقيقياً كفدائيّ. ستكتب في موقعٍ إلكتروني، أو في صحيفة ورقية، أو في مدوّنتك، لنفسك، أو لقارئٍ افتراضيّ، عدوّ أو صديق، طاغية أو ضحية، ستكتب ما شئت وما أوحى إليك به القريحة؛

ودوماً ستكتب لتتصف ذاتك، وتفقاً عين حاكمك، وتجبر عدوك على
احترامك.

ستكون سورياً أو ستصمت!

آب 2015

صدر من سلسلة «شهادات سورية»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلووط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدّد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفيه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو - متوسطة لدعم المدافعين عن حقوق

الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسّ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس:

16. ما تبقى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسان عباس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صديق عثمان.
23. خالي الذي في قبضتهم، ملاذ الزعبي.
24. مغلقة بسبب الإصلاحات، منذر مصري.
25. منازل الأوطان، نجاة عبد الصمد.